القرآن

في مدرسة أهل البيت عليهم السلام



هاشم الموسوي

الغدير

القرآن

في مدرسة أهل البيت عليهم السلام



تأليف: السيد هاشم الموسوي

مركز الغدير للدراسات الإسلامية



هوية الكتاب

اسم الكتاب : .... القرآن في مدرسة أهل البيت عليهم السلام
المؤلف :................. السيد هاشم الموسوي
الناشر : .... مركز الغدير للدراسات الإسلاميّة
عدد النسخ : ٣٠٠٠
الطبعة : .... الأولى
التاريخ :.................. ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م
المطبعة : .... محمّد


بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المركز

القرآن الكريم هو مصدر الشريعة الالهية ورسالة الله الأخيرة للأنسان، ولأنه الرسالة الخالدة فقد تعامل معه المسلمون على مرّ الأجيال فكان النبع والمصدر في التشريع واستنباط الأحكام..

ولكن إذا كان القرآن هو النص المكتوب بلغته العربية وبنسخته الوحيدة المتفق على سلامتها لدى جميع المسلمين فلماذا حدثت كل هذه الاختلافات، ولماذا ظهرت مختلف الاتجاهات الفكرية والعقيدية؟!

فالمشكلة اذن تعود إلى تعدد الوسائل والرؤى في التعامل مع القرآن وقراءته.. وتكمن في فهم النص القرآني واكتشاف الحقيقة المستورة.

كان الرسول ﷺ هو الذي يفسر القرآن للذين آمنوا به واتبعوه.. وبعد التحاقه بالرفيق الأعلى.. من الذي سينبري للنهوض بهذه المهمّة؟

كثيرون تلقوا الآيات في زمن النبي ﷺ وعرفوا دلالات بعض نصوص القرآن، ولكن هل كانوا متساوين في الوعي والادراك؟ وهل تلقوا تفسير القرآن كلّه؟

انّ منطق العقل يؤكد انّ أكثر الناس قرباً من النبي ﷺ هم أهل بيته.. وهذا ابن عمّه علي بن أبي طالب الذي نشأ في أحضان النبي ﷺ..

وتشرّب كلماته قبل البعثة وبعدها، فأهل البيت عليهم السلام تشرّبوا آيات القرآن وأدركوا أسراره، ولقد قال الله تعالى في القرآن ﴿لا يمسّه إلّا المطهّرون﴾.

وقال سبحانه أيضاً: ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾.

فهناك اذن آصرة قوية تجمع بين القرآن الكريم وأهل البيت عليهم السلام. وهي الآصرة التي أشار النبي صلى الله عليه وآله اليها بقوله: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي».

وهذه الآصرة لاتتوقف ولا تنتهي وإنّما تمتد لتواكب حركة الزمن، فالقرآن الكريم رسالة الله يشرحها النبي صلى الله عليه وآله وآل النبي صلى الله عليه وآله وفي غير هذه الحالة سوف تتأثر القراءة كنص موضوعي بالحالة الذاتية للقارىء والمفسّر وما يرتبط بها من مستويات الوعي والادراك والرؤية الشخصانية.

هذا ويسرّ مركز الغدير أن يقدّم إلى القارىء الكريم هذه الدراسة الوافية في موضوع حساس ومصيري متمنياً للجميع اكتشاف الحقيقة والسير في طريق الحق.

مركز الغدير

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله الطاهرين .

﴿إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾

لم تشهد البشرية في تاريخ حياتها حدثاً على سطح هذا الكوكب كحدث نزول القرآن ، ولم يكن من وصل بين عالم الغيب والشهادة يستضاء به في دنيا الإنسان غير نور الوحي المستودع في كتاب الله الحق .

هبط القرآن وحياً على الهادي محمد ﷺ لينير الدرب ويهدي أجيال الإنسان .

وهكذا كان فقد حدثت المعجزة واكتمل الوحي ، وحمل النبي ﷺ كلمة الله يؤازره من آمن وصدّق ، يبشّرون بها لإنقاذ الإنسان من ظلمات الجهل والجاهلية ، وتحطيم الطاغوت ، وإحداث عملية التغيير الشامل ، فكان القرآن منطلق الحضارة ، ومبعث النور ، وداعية العلم والعقل .

لقد أحدث القرآن إنقلاباً فكرياً وحضارياً عميقاً وشاملاً في حياة البشرية ، وقاد الإنسان في طريق العقل والعلم والأخلاق ، فحقق بذلك انسانية الإنسان ، وعلّمه كيف يفكّر تفكيراً علمياً ، وكيف يحيى إنساناً أخلاقياً .

وهذا الوحي الالهي الذي حوى بين جنبيه كنوز العلم ، وآفاق المعرفة ، قد جاء خطاباً بلغة الإنسان ، وكانت بيئة الخطاب ، ولسان النبي المخاطب ، هي العربية ، وهي أرقى ما عرف الإنسان من لغات التعبير ، فكان النص الالهي بصياغته العربية المعجزة موضع اهتمام المسلمين ، حفظاً وقراءة وتفسيراً ، منذ عهد النبوة وجيل الصحابة والتابعين ، وحتى يومنا الحاضر ، وسيمتد ويتصاعد هذا الاهتمام كلما تقدم الإنسان في فتوحات العلم ، واستنار عقله ووعيه .

لقد حفظ الله سبحانه هذا القرآن من التحريف والتزييف ، وتعهد بذلك بقوله سبحانه : ﴿إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾

لقد آمن المسلمون أن القرآن هو مصدر الفكر والاحكام والتشريع ، فمنه يستوحي الانسان أصول العقيدة ، وتستنبط أحكام الشريعة ، ومفاهيم الحضارة ، ومنهاج الحياة ، ومعايير السلوك والأخلاق .

وعلى امتداد آفاق الاتجاهات الفكرية والمنهجية ، امتد التعامل مع القرآن ، والاستدلال به بشكل أفرز مناهج ومذاهب متعددة ومتباينة للتعامل مع القرآن وفهم دلالته ، ومن هنا حدثت المشكلة الفكرية الكبرى بين المسلمين مشكلة فهم القرآن ، والاستنباط منه ، وتحديد

الضوابط والمراجع التي يصار اليها عند وقوع الخلاف لحسمه .

وكان الرسول ﷺ في عصر الوحي والدعوة ، هو المبلغ والمبيّن لما خفي من كتاب الله تعالى ، فتلقى عنه جيل الصحابة هذا البيان والتفسير عن طريق القول والفعل ، غير أن درجات الفهم والتلقي تختلف من صحابي لآخر ؛لذا برز منهم قرّاء ومفسرون ومفتون ، أمثال أبي وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس وغيرهم ، ومما أجمع المسلمون عليه أن أعلم المسلمين بالكتاب والسنة بعد رسول الله ﷺ هو الإمام علي عليه السلام ، لذا آمنت شيعة آل البيت عليهم السلام أن المرجع في فهم القرآن بعد النبي ﷺ هو الإمام علي عليه السلام ، ويؤكد هذه الحقيقة قول رسول الله ﷺ : « إني اوشك أن أدعى فأُجيب وإني تارك فيكم الثقلين ، كتاب الله (عزّوجل) وعترتي ، كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ، وأن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض ، فانظروا بم تخلفوني فيهما » .

كما جاء في الروايات الصحاح أنّ رسول الله ﷺ قرأ الآية الكريمة **﴿وتعيها أذن واعية﴾** ثم التفت الى علي فقال : « سألت الله أن يجعلها أذنك » .

فقال علي عليه السلام : « فما سمعت شيئاً من رسول الله فنسيته » .

وحين تعددت المذاهب والآراء والمدارس الفكرية برزت مدرسة أهل البيت عليهم السلام مناراً يضيء الدرب للسائرين ومنهلاً يأوي اليه رواد العلم والحقيقة : وكتابنا هذا ***(القرآن في مدرسة أهل البيت عليهم السلام)***

هو محاولة فكرية للتعريف بالمنهج الذي استوحاه العلماء من علوم ومعارف أهل البيت عليهم السلام في فهم القرآن والاستفادة منه .

ومن المفيد أن نعرّف إذاً بالعنوان الذي اخترناه لهذا الكتاب ، وهو :

(القرآن في مدرسة أهل البيت عليهم السلام) .

إنّ المقصود بأهل البيت عليهم السلام هم علي وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ذرية الحسين ، وهم علي بن الحسين (السجّاد) ومحمد بن علي الباقر ، وجعفر بن محمد الصادق ، وموسى بن جعفر الكاظم ، وعلي بن موسى الرضا ، ومحمد بن علي الجواد ، وعلي بن محمد الهادي ، والحسن بن علي العسكري ، ومحمد بن الحسن المهدي عليهم السلام جميعاً .

وما نقصده بمدرسة أهل البيت عليهم السلام هو ذلك الصرح العلمي والمنهجي الشامخ الذي شاده أئمة أهل البيت عليهم السلام على أساس الكتاب والسنة ، وتوارثوه إبناً عن أب عن رسول الله صلى الله عليه وآله .

وذلك ما يوضّحه قول الإمام الصادق عليه السلام : « حديثي حديث أبي ، وحديث أبي حديث جدي ، وحديث جدّي حديث أبيه ، وحديث أبيه حديث علي بن أبي طالب ، وحديث علي حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وحديث رسول الله صلى الله عليه وآله قول الله عزّوجل » .

وقول الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام للسائل الذي سأله : « بم يفتي الإمام ، قال : بالكتاب ، قال : فإن لم يجد ، قال بالسنة ، . . . » .

وقول الإمام الباقر عليه السلام: « يا جابر لو كنا نفتي الناس برأينا وهوانا لكنا من الهالكين، ولكنا نفتيهم بآثار من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصول علم عندنا، نتوارثها كابراً عن كابر، نكنزها كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضّتهم ».

وهكذا فإنَّ الأساس الذي بنى عليه أئمة أهل البيت عليهم السلام العلوم والمعارف الاسلامية التي أفاضوها هو الكتاب والسنة النبويّة المطهّرة.

وهكذا نفهم أيضاً أن الكتاب العزيز هو المصدر الأوّل في علوم ومعارف هذه المدرسة العلمية الخالدة.

وكما هو واضح فإنَّ فهم الكتاب والاستنباط منه استنباطاً معبِّراً عما يحوي الكتاب من علم واقعي يحتاج الى إحاطة علمية كاملة وسلامة منهج، لذا كان من جملة ما أفاضه أئمة أهل البيت عليهم السلام من علم ومعرفة هو علم التفسير والتأويل، ومنهج فهم القرآن.

وجدير ذكره أن أئمة أهل البيت عليهم السلام قد أسسوا منهج فهم القرآن على أساس من القرآن ذاته.

وحين تعددت مناهج الفهم ومذاهب الاستفادة والاستنباط من القرآن بعد رحيل الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم تصدى أئمة أهل البيت عليهم السلام ومن لدن علي، وحتى آخرهم لمهمة تفسير القرآن وبيان ما فيه من فقه وعلوم ومعارف.

وقد حاولنا في كتابنا هذا (*القرآن في مدرسة أهل البيت* عليهم السلام) أن نتبع المنهج العلمي في عرض الآراء والتعريف بوجهات النظر المتعددة حول قضايا القرآن وطريقة فهمه، لنعرّف بمنهج أهل البيت عليهم السلام أو قل بمنهج القرآن، في فهم القرآن، لنساهم في خدمة هذا الكتاب الالهي الخالد، وتكوين الرؤية العلمية لفهم القرآن، فنحن أحوج ما نكون الى فهم الأُسس السليمة للتعامل مع القرآن، وفهم دلالته.

سائلين المولى العلي القدير أن يتقبل هذا الجهد، ويسدد للصواب بمنّه، إنّه سميع مجيب.

المؤلّف

٧ / جمادى الأُولى / ١٤١٩ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الوحي

تعريف الوحي:

الوحي في اللغة: عرّف اللغويون الوحي بقولهم: «أصل الوحي: الإشارة السريعة، ولتضمن السرعة قيل: أمرٌ وحي، وذلك يكون بالكلام، وعلى سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وباشارة بعض الجوارح وبالكتابة ... ويقال للكلمة الإلهية التي تلقى الى أنبيائه وأوليائه وحي . وذلك أضْرُبٌ حسبما دلَّ عليه قوله **﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلّا وحياً . . .﴾** الى قوله **﴿بإذنه من يشاء﴾**.

وذلك إمّا برسول مُشاهَدٍ تُرى ذاته، ويسمع كلامه، كتبليغ جبريل عليه السلام للنبي في صورة معيّنة، وإما بسماع كلام من غير معاينة كسماع موسى عليه السلام كلام الله، وإما بإلقاء في الروع، كما ذكر عليه الصلاة والسلام: إنّ روح القدس نفث في رُوعي، وإما بتسخير نحو قوله: **﴿وأوحى ربك الى النحل﴾**، أو بمنام كما قال عليه الصلاة والسلام:

«انقطع الوحي وبقيت المبشرات، رؤيا المؤمن، فالإلهام والتسخير والمنام...»[1].

وعرّف الشيخ المفيد الوحي فقال: (أصل الوحي هو الكلام الخفي، ثم قد يطلق على كل شيء قصد به الى إفهام المخاطب على السّر له عن غيره، والتخصيص له به دون من سواه، وإذا أُضيف الى الله تعالى كان فيما يخص به الرسل (ص) خاصة دون من سواهم على عرف الإسلام وشريعة النبي...)[2].

وتحدّث المفسّر الإمامي الكبير الطبرسي عن الوحي فعرّفه بقوله: (الايحاء: هو إلقاء المعنى الى الغير على وجه يخفى، والإيحاء الإرسال الى الأنبياء، نقول أوحى الله إليه، أي أرسل إليه ملكاً. والايحاء الإلهام، ومنه قوله تعالى: **﴿وأوحى ربك الى النحل﴾**.

وقوله: **﴿بأن ربك أوحى لها﴾**: معناه ألقى إليها معنى ما أراد منها، قال العجاج: أوحى إليها القرار فاستقرت. وشدّها بالراسيات الثبّت.

والايحاء: الايماء، قال: فأوحت الينا والأنامل رسلها.

ومنه قوله تعالى: **﴿فأوحى إليهم أن سبّحوه بكرة وعشياً﴾** أي أشار إليهم. والوحي الكتابة. قال رؤبة: لقدر كان وحاه الواحي. وقال: في

---

(١) المفردات في غريب القرآن: الراغب الاصفهاني، ص٨٥٨ ـ ٨٥٩.

(٢) تصحيح الاعتقاد المطبوع مع أوائل المقالات: ص ٢٣١.

سور من ربنا موحية . والقلم الذي يكتب به . والقلم الذي يجال بين القوم)[1] .

وبهذا الاستعراض من أساطين العلم واللغة ، نعرف أنّ معنى الوحي في اللغة ، هو إلقاء المعنى إلى الغير بطريقة السُر والخفاء بين الملقي ، والملقى إليه .

الوحي في الاصطلاح :

وكلمة الوحي هي مصطلح قرآني من أعرق وأهم المصطلحات الاسلامية في مجال الفكر والعقيدة ، ويشكل الايمان به القاعدة الأساسيّة للايمان بالأنبياء والرسل ﷺ ، وقد استعملها القرآن بهذا المعنى في موارد عديدة ، كما جاءت في السنة المطهرة وعلى ألسن العلماء الاسلاميين ، وهو الوحي الى الأنبياء والرسل .

وهو المعنى المتبادر الى ذهن الإنسان المسلم من استعمال هذه الكلمة ، كقوله تعالى : **﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه﴾** .

وكقوله تعالى : **﴿وأُوحي إليَّ هذا القرآن لأُنذركم به ومن بلغ﴾**[2] .

وقد أوضح الشيخ المفيد الاستعمال الاصطلاحي لكلمة وحي بقوله : (إذا أُضيف « الوحي » الى الله تعالى كان فيما يخص به

---

(١) الطبرسي ، مجمع البيان . سورة آل عمران ، الآية ٤٤ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٩ .

الرسل ـ صلى الله عليهم ـ خاصة دون من سواهم على عرف الإسلام وشريعة النبي ﷺ)[1].

وهذا الصنف من الوحي الإلهي الى البشر قد انقطع بوفاة نبينا محمد ﷺ ولتأكيد هذا المعتقد الضروري في الإسلام قال الشيخ المفيد : (. . . والاتفاق على أنّه من زعم أن أحداً بعد نبينا محمد ﷺ يوحى إليه فقد أخطأ وكفر ، ولحصول العلم بذلك من دين النبي ﷺ . . .)[2].

ثم يوضّح المعنى الاصطلاحي للوحي ، ويفصله عن غيره ، رغم استعمال نفس اللفظ بقوله : (وقد يُري الله سبحانه وتعالى في المنام خلقاً كثيراً ما يصح تأويله ، وتثبت حقيقته ، لكنه لا يُطلق بعد استقرار الشريعة عليه اسم الوحي ، ولا يقال في هذا الوقت لمن طبعه الله على علم شيء أنه يوحىٰ إليه . . .)[3].

وقد جاء في توضيح المعنى الاصطلاحي أيضاً :

(وأمّا تفسير وحي النبوة والرسالة فهو : قوله تعالى : **﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى إبراهيم وإسماعيل[4] . . .﴾**[5].

---

(١) تصحيح الاعتقاد المطبوع مع أوائل المقالات : ص ٢٣١ .

(٢) أوائل المقالات ، الشيخ المفيد : ص٧٨ .

(٣) تصحيح الاعتقاد : ص ٢٣١ .

(٤) سورة النساء ، الآية ١٦٣ .

(٥) المجلسي ، بحار الأنوار : ١٨ / ٢٥٤ نقلاً عن تفسير النعماني .

وهكذا يتضح الاستعمال الاصطلاحي لكلمة وحي ، ويفترق عن الاستعمالات الأخرى التي تنطبق على غير الانبياء ، كما يتضح ذلك .

الوحي في القرآن :

لقد استعمل القرآن الكريم كلمة الوحي في معان عديدة ، وهذه الاستعمالات هي :

١ ـ استعمل القرآن الكريم كلمة وحي بمعناها الاصطلاحي كما أشرنا إليه آنفاً .

٢ ـ استعمل القرآن الكريم كلمة وحي بمعنى الإلقاء في نفوس بعض العباد من غير الأنبياء ، كإلقاء الله سبحانه ما أراد إلقاءه في نفس أم موسى وإلهامها .

قال تعالى : ﴿ **وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين** ﴾[1] .

وقد نقل الشيخ المفيد تفسير هذا اللون من الوحي بقوله عند تفسير الآية الآنفة الذكر : (فاتفق أهل الإسلام على أن الوحي كان رؤيا ، أو كلاماً سمعته أم موسى في منامها على الاختصاص)[2] .

---

(١) سورة القصص ، الآية ٧ .

(٢) تصحيح الاعتقاد : ص ٢٣٦ .

وكإلقائه سبحانه في نفوس الحواريين ليؤمنوا بعيسى الذي صوَّره بقوله : **﴿وإذ أوحيتُ الى الحواريّينَ أن آمنوا بي وبرسولي . . . ﴾** [1] .

ونقرأ تفسيراً آخر لكلمة الوحي بمعنى إلهام بعض الناس أو توجيه بعض الخلائق ، فقد نقل العلّامة المجلسي من تفسير النعماني مانصه :

[وأما وحي الإلهام فهو قوله عزوجل : **﴿وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون﴾** . ومثله : **﴿وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم . . . ﴾** [2]] .

وقد أشار الشيخ المفيد الى أن هذا اللون من الإلقاء يحصل لأئمة أهل البيت الهداة عليهم السلام لما اتصفوا به من طهارة الذات ، وصفاء النفس ، وكمال التقوى ، والتوجه الى الله سبحانه ، على أن هذا الإلقاء كما يوضح الشيخ المفيد ليس هو إلقاء أحكام أو تشريع ، فإن ذلك منقطع بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا يصح القول به .

قال رحمه الله : (وعندنا أن الله يُسمع الحجج بعد نبيه كلاماً يلقيه إليهم في علم ما يكون ، لكنه لا يطلق عليه اسم الوحي ، لما قدمناه من

---

(١) سورة المائدة ، الآية ١١١ .

(٢) المجلسي ، بحار الأنوار : ١٨ / ٢٥٤ ـ ٢٥٥ .

إجماع المسلمين على أنه لا وحي الى أحد بعد نبينا ، وأنه لا يقال في شيء مما ذكرناه أنه وحي الى أحد)[1] .

فهذا الصنف من الإلقاء الذي أشار إليه الرسول ﷺ وأجمع المسلمون على حصوله لغير الأنبياء يتحقق للأولياء في المنام والإلهام والرؤيا ، وغير ذلك من المبشرات التي ذكرها الحديث النبوي الشريف .

٣ ـ استعمل القرآن كلمة (الوحي) بمعنى الوسوسة والإلقاء الخبيث في النفس ، وقد جاء هذا الاستعمال في قوله تعالى : **﴿وإن الشياطين ليوحون الى أوليائهم . . . ﴾**[2] .

وبقوله : **﴿يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً . . . ﴾** .

٤ ـ واستعمل القرآن كلمة الوحي بمعنى الإشارة المُفهمة إفهاماً خفياً للمراد .

فقد جاء هذا الاستعمال في وصفه تعالى لاشارة النبي يحيى عليه السلام الى أصحابه ، قال تعالى : **﴿فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم . . . ﴾**[3] .

٥ ـ الإيحاء بمعنى التسخير و وضع النظام التكويني من قبل الله تعالى لتسير وفقه عوالم الطبيعة والمادة والأحياء . ويوضح هذا المعنى قوله

---

(١) تصحيح الإعتقاد ، ص ٢٣١ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٢١ .

(٣) سورة مريم ، الآية ١١ .

تعالى : ﴿فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها﴾ (١).

﴿وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون﴾ (٢).

صور الوحي الى الأنبياء :

قال تعالى : **﴿وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلّا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي باذنه ما يشاء انه علي حكيم* وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا . . . ﴾** (٣).

لقد تحدث القرآن الكريم عن حالات عديدة للالقاء الإلهي وحالات الوحي الى الأنبياء التي يتلقاها الأنبياء بوعي ووضوح كامل لما يريد الله سبحانه أن يلقيه إليهم .

وهذه الحالات هي:

١ ـ ***الوحي المباشر*** : لقد حظي بعض الأنبياء بالحديث الإلهي المباشر ، وإلقاء الكلمة إليهم ، واسماعهم من غير واسطة الملك عليه السلام وقد وصف الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام هذا الصنف من الوحي الذي تلقاه نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أتاه الوحي

---

(١) سورة فصلت ، الآية ١٢ . يراجع تفسيرها .

(٢) سورة النحل ، الآية ٦٨ .

(٣) سورة الشورى ، الآية ٥١ ـ ٥٢ .

وبينهما جبرئيل عليه السلام يقول : هو ذا جبرئيل ، وقال لي جبرئيل ، وإذا أتاه الوحي ، وليس بينهما جبرئيل ، تصيبه تلك السبتة [1] ، ويغشاه منه ما يغشاه ؛ لثقل الوحي عليه من الله عزوجل » [2] .

وروى زرارة قال : « قلت لأبي عبد الله عليه السلام جعلت فداك الغشية التي كانت تصيب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا نزل عليه الوحي ؟ قال : فقال : ذلك إذا لم يكن بينه وبين الله أحد ، ذاك إذا تجلى الله له ، قال : ثم قال : تلك النبوّة يازرارة » [3] .

ويصف الشيخ المفيد هذه الحالة فيقول : (فأما الوحي من الله تعالى الى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فقد كان تارة باسماعه الكلام من غير واسطة ...) [4] ومثاله ما كلم الله به النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم في معراجه المبارك عند سدرة المنتهى [5] .

وهذه المباشرة لا تعني زوال الحجاب الذي يكلم من ورائه البشر ، كما ذكر الله سبحانه ذلك .

٢ ـ *الوحي بواسطة الملك جبرئيل* : وهذا اللون من الوحي هو الوحي المألوف في الرسالات ، وبه نزلت الكتب والشرائع ، فقد جعل الله جبرئيل عليه السلام وسيطاً لايصال رسالاته الى الأنبياء عليهم السلام .

---

(١) السبتة : الغشية .

(٢) المجلسي ، بحار الأنوار : ٢٧١/١٨ .

(٣) المصدر السابق : ٢٥٦/١٨ . مؤسسة الوفاء ـ بيروت .

(٤) تصحيح الاعتقاد : ص ٢١٠ .

(٥) الطبرسي ، مجمع البيان : تفسير الآية ١٤٥ من سورة الأعراف .

قال الله تعالى : موضحاً نزول القرآن على نبينا محمد ﷺ بواسطة جبرئيل ﷺ : ﴿**نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين**﴾[1] .

وقال سبحانه : ﴿**قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزّله على قلبك بإذن الله . . .**﴾[2] .

٣ ـ *الوحي بواسطة الرؤيا* : ومن صور الوحي للأنبياء هو الرؤيا الصادقة التي يريها الله سبحانه لأنبيائه ورسله ﷺ .

وقد تحدث القرآن عن رؤيا إبراهيم ويوسف ومحمد ﷺ ، نذكر منها حديث القرآن عن الرؤيا التي أراها الله سبحانه لنبيه في دخول المسجد الحرام ، وتحقيق النصر له .

قال تعالى : ﴿**لقد صدقَ اللهُ رسولَهُ الرؤيا بالحق لَتَدْخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إن شاءَ اللهُ آمنين محلِّقين رؤوسَكُمْ ومقصِّرين لا تخافون فعلمَ ما لم تعلموا فجعلَ من دون ذلك فتحاً قريباً**﴾[3] .

﴿**وإذ قلنا لك إن ربَّكَ أحاطَ بالناسِ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلّا فتنةً للناس والشجرةَ الملعونةَ في القرآنِ ونخوّفهم فما يزيدهم إلّا طغياناً كبيراً**﴾[4] .

---

(١) سورة الشعراء ، الآية ١٩٣ ـ ١٩٤ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٩٧ .

(٣) سورة الفتح ، الآية ٢٧ .

(٤) سورة الإسراء ، الآية ٦٠ .

وروى الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام حين سئل : كم تتأخر الرؤيا ؟ قال : «رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في منامه كأن كلباً أبقع يلغ في دمه فكان ، أي ذلك الكلب الأبقع شمراً ، قاتل الحسين ، وكان أبرص ، فكان تأخير الرؤيا بعد خمسين سنة»[١] .

وورد عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قوله : «رؤيا الأنبياء وحي» .

ويوضح الإمام الصادق عليه السلام أن صنفاً من الأنبياء يتلقون وحيهم عن طريق الرؤيا ، فقد روي عنه قوله في هذا الصنف من التلقي : «... الرسول الذي يأتيه جبريل قبلاً فيراه ويكلّمه ، فهذا الرسول . وأما النبي فهو الذي يرى في منامه . نحو رؤيا إبراهيم . ونحو ماكان رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أسباب النبوة قبل الوحي ، حتى أتاه جبريل عليه السلام من عند الله بالرسالة»[٢] .

وقد روي عن عائشة قولها : (أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ...)[٣] .

٤ ـ *النفث في الروع والإلقاء في النفس* : ومن صور الوحي والإلقاء

---

(١) علي بن برهان الدين الحلبي ، السيرة الحلبية ، باب بدء الوحي : ٤٠٠/١ ، ط / دمشق : دار المعرفة (١٤٠٩ هـ ١٩٨٩ م) .

(٢) الكليني ، الأصول من الكافي : ١٧٦/١ . باب الفرق بين الرسول والنبي .

(٣) صحيح البخاري : ج ١ ص ٣٠ ـ ٣١ دار احياء التراث العربي بيروت ، (ط . ٢ / ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م) باب كيف كان بدء الوحي الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

الإلهي في نفوس الأنبياء هو النفث في الروع . فقد روي عن النبي ﷺ بيانه لهذه الصورة من صور الوحي ، روى الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قول الرسول ﷺ : « أيها الناس إني لم أَدَعْ شيئاً يقربكم الى الجنة ، ويباعدكم من النار ، إلّا وقد نبأتكم به ، ألا وإن روح القدس (قد) نفث في روعي ، وأخبرني أن لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله عزوجل ، وأجملوا في الطلب »(١) .

وهكذا يوضح هذا الحديث طريقة النفث في الروع والإلقاء في نفس النبي ﷺ المقدسة .

وفيما يلي نقرأ تلخيصاً لصور الوحي في قوله تعالى : **﴿ما كان لبشر﴾** أي لا يصح له **﴿أن يكلمه الله إلّا وحياً﴾** أي إلهاماً وقذفاً في القلوب ، أو إلقاء في المنام ، **﴿أو من وراء حجاب﴾** أي يكلمه من وراء حجاب ، كما كلم موسى بخلق الصوت في الطور ، وكما كلم نبينا في المعراج ، وهذا إمّا على سبيل الاستعارة والتشبيه ، فإن من يسمع الكلام ، ولا يرى المتكلم ، يشبه حاله بحال من يكلم من وراء حجاب ، أو المراد بالحجاب الحجاب المعنوي من كماله تعالى ونقص الممكنات ، ونوريته تعالى وظلمانية غيره ، كما سبق تحقيقه في كتاب التوحيد . **﴿أو يرسل رسولاً﴾** أي ملكاً **﴿فيوحي باذنه مايشاء﴾** .

فظهر أن وحيه تعالى منحصر في أقسام ثلاثة :

---

(١) الكليني ، الكافي : ٨٣/٥ . كتاب المعيشة ، باب الإجمال في الطلب .

إمّا بالإلهام [١] والإلقاء في المنام، أو بخلق الصوت بحيث يسمعه الموحىٰ إليه.

أو بإرسال ملك [٢].

بدء الوحي:

يشكل الوحي أبرز ظاهرة ربانية غيبية في عالم الإنسان والشهادة. ولقد تحدث القرآن عن الوحي، وأضاء ما لابد للإنسان معرفته من هذه الظاهرة الغيبية.

وفي هذا الموضوع نحاول أن ندرس مسألة بدء الوحي الى النبي محمد ﷺ فإن تحديد بداية الوحي الى النبي ﷺ توضح لنا مسائل عديدة، من أبرزها إنهاء التقولات التي وصف بها موقف النبي حين مخاطبة جبريل عليه السلام له في غار حراء.

فقد جاءت روايات مختلفة تصور لنا موقف النبي ﷺ من تلقي البشارة بالبعثة الى البشرية يوم أراد الله سبحانه بعثه الى الناس كافة، تروي أن النبي ﷺ لم يكن يعرف ما حدث له، فعاد الى أهله يملأ قلبه الرعب والشك بنفسه، وهو يبحث عن تفسير لما رأى وسمع، فكان فهم ذلك وتفسيره عند خديجة وورقة بن نوفل.

ولكي نقف على جانب من تلك الروايات فلنقرأ:

---

(١) يدخل النفث في الروع في هذا القسم من الوحي.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار: ١٨/٢٤٦.

أخرج البخاري عن عائشة : (أولُ ما بُدئَ به رسول الله ﷺ من الوحي ، الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يَرَى رؤيا إلّا وجاءت مثل فَلَقِ الصبح ، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنَّثُ فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله ، ويتزوَّدُ لذلك ، ثم يَرْجِعُ الى خديجة فيتزودُ لمثلها ، حتى جاءه الحق ، وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : (ما أنا بقارئ) . قال : (فأخذني فَغَطَّني [1] حتى بَلَغَ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلتُ : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني فقال : ﴿**اقرأ باسم ربِّك الذي خَلَقَ * خَلَقَ الإنسان من عَلَق * اقرأ وربُّك الأكرمُ**﴾ . فرجع بها رسولُ الله ﷺ يَرْجُف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد ، رضي الله عنها ، فقال : (زَمِّلُوني زمِّلوني) . فزمّلوه حتى ذهب عنه الرَّوع ، فقال لخديجة ، وأخبرها الخبر : (لقد خَشِيتُ على نفسي) . فقالت خديجة : كلّا ، والله ما يُخزيك الله أبداً ، إنك لتصلُ الرحم ، وتحملُ الكَلَّ ، وتكسبُ المعدوم ، وتقري الضيف ، وتُعينُ على نوائب الحقِّ .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى ، ابن عَمِّ خديجة ، وكان امرءاً تَنَصَّرَ في الجاهلية ، وكان يكتب

---

(١) غطّني : كبسني وعصرني عصراً شديداً / المعجم الوسيط .

الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتبَ ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له خديجة : يابن عم ، اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقةُ : ياابنَ أخي ماذاترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموسُ الذي نَزَّله الله على موسى. . .)[1] .

ويتحدث الطبري في تأريخه المعروف بتأريخ الطبري عن بدء الوحي في غار حراء فيصور ذلك المشهد بالرواية التي رواها البخاري مضيفاً : (. . . حتى فجأه الحق فأتاه ، فقال : يامحمد أنت رسول الله ، قال رسول الله ﷺ فجثوت لركبتي وأنا قائم ، ثم زحفت ترجف بوادري ، ثم دخلت على خديجة ، فقلت : زملوني ، زملوني حتى ذهب عني الروع ، ثم أتاني فقال : يا محمد أنت رسول الله ، قال : فلقد هممت أن أطرح نفسي من حالق من جبل فتبدى لي حين هممت بذلك ، فقال : يا محمد أنا جبريل ، وأنت رسول الله . . .)[2] .

ويروي لنا الطبري حوادث بدء الوحي في رواية أُخرى ، فيقول ـ بعد أن تحدث عن حوار جبريل مع النبي ـ : (. . . فجاء الى خديجة فقال : يا خديجة ما أراني إلّا قد عُرض لي ، قالت : كلّا ، والله ماكان ربك

---

(١) صحيح البخاري : ١ / ٣٧ ـ ٣٨ ، دار احياء التراث العربي ـ بيروت ط ٢ ، ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م .

(٢) تأريخ الطبري : ٢/ ٢٠٥ ، ط ١٣٩٩ ـ ١٩٧٩ م دار الفكر ـ بيروت .

يفعل ذلك بك، ما أتيت فاحشة قط، قال: فأتت خديجة ورقة ابن نوفل فأخبرته الخبر، فقال: لئن كنت صادقة، إن زوجك لنبي ...)[1].

ثم يروي الطبري عن النبي ﷺ أنه قال: إن جبريل جاءه، وهو نائم في غار حراء ليلاً، فقال له: إقرأ، والنبي يقول: ماذا أقرأ؟ ثم يكرر عليه، وهو يقول: ماذا أقرأ؟ فقال له في المرة الثالثة: **﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾** الى قوله **﴿علم الإنسان مالم يعلم﴾**.

ثم ينقل عن النبي ﷺ قوله: «فقرأته، ثم انتهى، ثم انصرف عني، وهببت من نومي، وكأنما كتب في قلبي كتاباً».

قال ـ أي النبي ﷺ ـ: «ولم يكن من خَلْق الله أحدٌ أبغضَ إليَّ من شاعر أو مجنون كنت لا أطيق أن أنظر إليهما، قال: قلت إن الأبْعَدَ ـ يعني نفسه ـ لَشاعر أو مجنون، لا تُحدِّث بها عني قريش أبداً، لأعمدنَ الى حالِقٍ من الجبل فلأطرحنَّ نفسي منه، فلأقتلنّها فلأستريحنَ.

قال ﷺ: فخرجت أريد ذلك، حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبرئيل ...)[2].

---

(١) المصدر السابق: ٢٠٦/٢.

(٢) المصدر السابق: ص٢٠٧.

ثم يواصل الطبري نقله لهذه الرواية التي تنسب الى النبي ﷺ :

(... وانصرفت راجعاً الى أهلي حتى أتيت خديجة فجلست الى فخذِها مُضيفاً ، فقالت : يا أبا القاسم أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك ، حتى بلغوا مكة ، ورجعوا إليّ ، قال : قلت لها : إنَّ الأبْعَدَ لشاعر أو مجنون ، فقالت : أعيذك بالله من ذلك يا أبا القاسم : ما كان الله ليصنعَ ذلك بك مع ما أعلم منك من صدق حديثك ، وعظم أمانتك ، وحسن خلقك ، وصلة رحمك ، وذاك يا ابن عم ! لعلك رأيت شيئاً ؟ قال : فقلت لها : نعم . ثم حدثتُها بالذي رأيت ، فقالت : أبشرْ ياابن عمّ واثبت ، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأمة . ثمّ قامت فجمعت عليها ثيابها ، ثم انطلقت الى ورقة بن نوفل بن أسد ـوهو ابن عمّها ، وكان ورقة قد تنصّر وقرأ الكتب ، وسمع من أهل التوراة والإنجيل ـ فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع ، فقال ورقة : قُدُّوس ، قُدُّوس ! والذي نفس ورَقة بيده ، لئن كنتِ صدقتني يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر ـ يعني بالناموس جبرئيل ﷺ الذي كان يأتي موسى ـ وإنه لنبيّ هذه الأمة ، فقولي له فليثبُتْ . فرجعت خديجة الى رسول الله ﷺ ، فأخبرته بقول ورقة فسهَّل ذلك عليه بعض ما هو فيه من الهمّ ...)[1] .

وهكذا تصوّر هذه الروايات شخصية النبي الأكرم محمد ﷺ

---

(١) تأريخ الطبري : ٢ / ٢٠٧ .

وموقفه من تلقي الوحي بشكل يتناقض وما ورد عن أئمة أهل البيت وعلمائهم، وتبرز ثلاثة عناصر أساسية حَريَّة بأن نناقشها، ونكشف ما حوت من طعن في شخص النبي الكريم ﷺ وتوهين لموقفه، ومخالفة للعقل والمنطق. فهي تصوّر:

١ ـ أن النبي كان يجهل ما سمع ورأى، ولا يعرف له تفسيراً.

٢ ـ إتهم النبي ﷺ نفسه بأنه شاعر أو مجنون. مما يكشف التلفيق الواضح، والدس الصريح المأخوذ من تهم الأعداء لشخص النبي ﷺ بعد التعريف بنبوته.

٣ ـ لقد فقد النبي السيطرة على موقفه العصبي، وحاول أن يلقي بنفسه من أعلى الجبل ليقتلها.

٤ ـ إن خديجة وورقة بن نوفل قد اكتشفا أن الذي رآه النبي ﷺ هو جبريل، وأن ما حدث له إن هو إلّا تباشير النبوة. فطمأناه بذلك فعرف أنه نبي مُخاطب بالوحي منهما، وبذا اطمأنت نفسه، وعرف تفسير ما رأى. أما هو فلم يستطع معرفة ما رأى وسمع.

٥ ـ انّ ما رآه النبي ﷺ هو رؤية منام، وليس يقظة كما أورد الطبري ذلك في احدى رواياته.

٦ ـ تتناقض هذه الروايات مع صدر الرواية التي رواها البخاري عن عائشة من أن الوحي الى النبي ﷺ قد بدئ بالرؤية الصالحة، فكان لا يرى رؤية إلّا جاءت كفلق الصبح.

وإذا كانت هذه المجموعة من الروايات تتحدث بهذا الشكل

المشوّه والمفترى في بدء الوحي ، وتلقّي الرسول ﷺ لهذا الفتح الغيبي الفريد في عالم الانسان ، والتي تبناها المستشرقون والمشوّهون لمبدأ النبوة ، فلنتناول مجموعة أُخرى من الروايات والآراء التي تتحدث عن بدء الوحي ، وعن موقف الرسول ﷺ وعلاقته بالله سبحانه قبل أن يتفضّل المولى عليه ببشارة البعثة في غار حراء ، لنسجل التناقض بين المجموعتين ، ونعرض الفهم السليم لشخص الرسول ، ولنزول الوحي ، وكيفية تلقيه ﷺ لهذا الحدث العظيم .

فقد جاء عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ، وعن عدد من علماء ينتسبون الى مدارس مذهبية متباينة ؟ . أن النبي لم يفاجأ بالوحي ، وأن هناك مرحلة إعداد الهي ، وتربية للنبي ﷺ ليكون مؤهلاً لتلقي الوحي ، واستقبال المهمة الكبرى في عالم الإنسان .

قال الأحول : سألت أبا جعفر عن الرسول والنبي والمحدث : قال : (الرسول الذي يأتيه جبريل قبلاً فيراه ويكلمه ، فهذا الرسول . وأما النبي فهو الذي يرى في منامه نحو رؤيا إبراهيم عليه السلام ونحو ما كان رأي رسول الله ﷺ من أسباب النبوة قبل الوحي ، حتى أتاه جبريل عليه السلام من عند الله بالرسالة ، وكان محمد ﷺ حين جمع له النبوة ، وجاءته الرسالة من عند الله يجيئه بها جبريل عليه السلام ، ويكلمه قبلاً . . .)(١) .

وعن زرارة قال : قلت لأبي عبد الله : كيف لم يخف رسول الله ﷺ

(١) المجلسي ، بحار الأنوار : ١٨/٢٦٦ .

فيما يأتيه من قبل الله أن يكون ذلك مما ينزغ به الشيطان ؟ قال : فقال : « إن الله إذا اتخذ عبداً رسولاً أنزل عليه السكينة والوقار فكان يأتيه من قبل الله ، عزوجل ، مثل الذي يراه بعينه »[١] .

وتحدث الإمام علي ﷺ في الإعداد الإلهي لشخص النبي الكريم وتأهيله للنبوة فقال : « لقد قرن الله به من لدن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ، ومحاسن أخلاق العالم ، ليله ونهاره »[٢] .

ونقل الماوردي عن الشعبي ما يساوق قول الإمام علي ﷺ فقد جاء فيه : (إنَّ الله قرن إسرافيل ﷺ بنبيه ثلاث سنين ، يسمع حسه ، ولا يرى شخصه ، يعلّمه الشيء بعد الشيء ، ولا يذكر له القرآن ، فكان في هذه المدة مبشراً بالنبوة ، وأمهله هذه المدة ؛ ليتأهب لوحيه)[٣] .

وأخرج البخاري عن عائشة ـ رض ـ أنها قالت : (أول ما بدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصبح . . .) .

وقال القاضي وغيره : (وإنما ابتدئ رسول الله ﷺ بالرؤيا لئلا

---

(١) المجلسي ، بحار الأنوار : ٢٦٢/١٨ .

(٢) المجلسي ، بحار الأنوار : ٢٧١/١٨ .

(٣) علي بن برهان الدين الحلبي ، السيرة الحلبية : ١/ ٤٠٠ ط ١ / دمشق : دار المعرفة (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م) .

يفجأه الملك الذي هو جبرئيل عليه السلام بالنبوة : أي الرسالة ، فلا تتحملها القوى البشرية : أي لأن القوى البشرية لا تتحمل رؤية الملك ، وإن لم يكن على صورته التي خلقه الله عليها ، ولا على سماع صوته ، ولا على ما يخبر به ، لا سيما الرسالة ، فكانت الرؤيا تأنيساً له صلى الله عليه وآله وسلم والمراد بالملك جبرئيل عليه السلام)[1] .

ثم نقل الحلبي في سياق عرضه للآراء الواردة في بدئ الوحي فقال : وعن علقمة بن قيس : (أول ما يؤتى به الأنبياء في النوم ، أي ما يكون في المنام ، حتى تهدأ قلوبهم ، ثم ينزل الوحي)[2] .

ثم علق الحلبي على ذلك بقوله : أي في اليقظة[3] ؛ لأن رؤيا الأنبياء وحي وصدق وحق ، لا أضغاث أحلام ، ولا تخيّل من الشيطان ، إذ لا سبيل له عليهم ، لأن قلوبهم نورانية فما يرونه في المنام ، له حكم اليقظة ، فجميع ما ينطبع في عالم مثالهم لا يكون إلّا حقاً ، ومِنْ ثَمَّ جاء : « نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا »[4] .

ثم قال : (وذكر بعضهم أن مدة الرؤيا ستة أشهر ، قال : فيكون ابتداء الرؤيا حصل في شهر ربيع الأول ، وهو مولده صلى الله عليه وآله وسلم ثم أوحى الله إليه

---

(١) المصدر السابق : ج ١ ص ٢٩٧ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) يعني نزول الوحي .
(٤) المصدر السابق .

في اليقظة ، أي في رمضان ، ذكره البيهقي وغيره)[1] .

وتحدث العلامة المجلسي بعد أن عرض جملة من الأخبار والروايات والتحليلات المتعلقة ببدء الوحي ، قال : (فإذا عرفت ذلك فاعلم أن الذي ظهر لي من الأخبار المعتبرة ، والآثار المستفيضة ، هو أنه كان قبل بعثته ، مذ أكمل الله عقله في بدو سنه ، نبياً مؤيداً بروح القدس ، يكلمه الملك ، ويسمع الصوت ، ويرى في المنام ، ثم بعد أربعين سنة صار رسولاً ، وكلمه الملك معاينة ، ونزل عليه القرآن ، وأمر بالتبليغ ، وكان يعبد الله قبل ذلك بصنوف العبادات ، إما موافقاً لما أمر به الناس بعد التبليغ ، وهو أظهر ، أو على وجه آخر ، أما مطابقاً لشريعة إبراهيم عليه السلام أو غيره ممن تقدمه من الأنبياء عليهم السلام لا على وجه كونه تابعاً لهم ، أو عاملاً بشريعتهم ، بل أن ما أوحي إليه كان مطابقاً لبعض شرائعهم ، أو على وجه آخر ، نسخ بما نزل عليه بعد الإرسال . . .)[2] .

إنَّ هذه المجموعة من الروايات والآراء والتحليلات العلمية التي وردت عن أئمة أهل البيت وعلمائهم ، وعدد من علماء المذاهب الإسلامية الأخرى . لتؤكد لنا حقيقة منطقية ، وتكشف واقعاً موضوعياً يتلخص في المبادئ الآتية :

١ ـ إن الله أعدَّ نبيَّه ، وهيَّأه لتحمل تلك المسؤولية الكبرى ، ورعاه

---

(١) المصدر السابق .

(٢) بحار الأنوار : ١٨/٢٧٧ ط ٣ (١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م) .

رعاية ربانية عن طريق ملك (روح القدس) مكلف بذلك قبل أن يكلف بحمل الرسالة الى البشرية في غار حراء.

٢ - إن بدء الوحي، هو الرؤية الصادقة في المنام التي كان يدرك حقيقتها، كما يدرك في عالم اليقظة.

٣ - إنه نُبِّئ فكان نبياً، منذ أكمل الله عقله في بدو سنه، يتلقى الوحي عن طريق المنام والإلقاء في النفس وحديث الملك قبل أن يبعث الى الناس رسولاً.

٤ - إن فترة الخلوة التي كان يخلوها في غار حراء كان فيها نبياً، فكان يخلو للتعبد والتأمل، منتظراً البعثة والرسالة. ولم يفاجأ بشيء أبداً.

٥ - بعد أن كمل عمره الشريف أربعين سنة، نزل عليه جبريل ﷺ بالقرآن، وبعثه الله الى الناس رسولاً.

كيفيّة نزول القرآن

لقد تحدّث القرآن عن زمن النزول وكيفيته ، فأوضح أن القرآن نزل في ليلة القدر من شهر رمضان المبارك ، جاء ذلك في قوله تعالى : **﴿شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن هدىً للناس وبيّنات من الهدى والفرقان . . .﴾** .

ثم بيّن الليلة التي نزل فيها القرآن ، فقال : **﴿إنّا أنزلناه في ليلة مباركة إنّا كنا منذرين ۞ فيها يفرق كلّ أمر حكيم﴾** [1] .

وبيّن هذه الليلة المباركة بقوله : **﴿إنّا أنزلناه في ليلة القدر﴾** .

وهكذا يوضح القرآن أنّه نزل ليلاً ـ في ليلة القدر ـ على النبيّ الأمين محمد ﷺ في شهر رمضان المبارك . وفي موضع آخر تحدّث عن كيفية نزول القرآن وتنزيله من قبل الله تعالى على النبي محمد ﷺ ، قال سبحانه : **﴿ما كان لبشرٍ أن يكلّمه الله إلّا وحياً أو من وراء حجاب أو يُرسل رسولاً فيوحيَ بإذنه ما يشاء إنّه عليّ حكيم﴾** [2] .

---

(١) سورة الدخان ، الآية ٣ و ٤ .

(٢) سورة الشورى ، الآية ٥١ .

وقال تعالى : **﴿فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه﴾** [١] ، وقال تعالى : **﴿وقرآناً فرّقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزّلناه تنزيلا﴾** [٢] .

وقال تعالى : **﴿وقال الذين كفروا لولا نُزّل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبّت به فؤادك ورتّلناه ترتيلاً﴾** [٣] .

وحصيلة ما يستفاد من هذه الآيات المباركة :

١ ـ إنّ القرآن نزل وحياً من ربّ العزّة ، وبصورة قراءة ، نزل به جبريل على النبي محمد ﷺ وليس مكتوباً بصحف أو ألواح ، كما نزلت الكتب الإلهية الاخرى .

٢ ـ إنّ النزول بدأ في ليلة القدر من شهر رمضان المبارك ، كما نزلت الكتب الإلهية التوراة والانجيل والزبور في هذا الشهر المبارك ، كما تفيد الروايات ذلك .

٣ ـ إنّ القرآن نزل مُفرّقاً على شكل آيات أو سور أحياناً ، ولم ينزل بصورته الكاملة على النبي محمد ﷺ دفعة واحدة ، ويتضح ذلك من قوله تعالى : **﴿لتقرأه على الناس على مكث﴾** و **﴿ورتّلناه ترتيلا﴾** أي بيّناه وفرّقناه تفريقاً ، كما يتضح ذلك من ردّه على الكافرين بالآية ٣٢ من سورة الفرقان ، الذين طالبوا بإنزاله جملة واحدة على النبي محمد ﷺ .

---

(١) سورة القيامة ، الآية ١٨ .

(٢) سورة الاسراء ، الآية ١٠٦ .

(٣) سورة الفرقان ، الآية ٣٢ .

وما جاء في الفقرة الثالثة آنفاً ، هو ما يذهب إليه جمع من العلماء والمحققين ، وبه قال الشيخ المفيد .

غير أنّ هناك من يذهب الى أنّ القرآن نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ الى السماء الدنيا ، ثم أنزله الله تعالى عن طريق جبرئيل على نبيه محمد ﷺ مفرّقاً .

وقد أخرج الحاكم والبيهقي والنسائي وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم والطبراني والبزار وابن مردويه عن ابن عباس بعدة طرق ، أخرجوا ذلك [١] .

ومن علماء الشيعة يذهب الى هذا القول الشيخ الصدوق أيضاً وهو من أعاظم علماء الشيعة الإمامية ، وقد ردّ الشيخ المفيد هذا الرأي ، وناقش الصدوق ، ولكي يتضح الرأيان فلنذكرهما معاً :

قال الشيخ الصدوق : (إنّ القرآن نزل في شهر رمضان ، في ليلة القدر جملة واحدة الى البيت المعمور ، ثم أنزل من البيت المعمور في مدة عشرين سنة) [٢] .

وقد ردّ الشيخ المفيد على هذا الرأي بقوله : « الذي ذهب إليه أبو جعفر في هذا الباب أصله حديث واحد ، لا يوجب علماً ولا عملاً ونزول القرآن على الأسباب الحادثة ، حالاً فحالاً يدلّ على خلاف ما تضمنه الحديث . وذلك أنه قد تضمّن حكم ما حدث ، وذكر

(١) السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن : ١/١١٦ ـ ١١٧ .

(٢) تصحيح اعتقاد الصدوق : ص ٢٣٢ .

ما جرى ، وذلك لا يكون على الحقيقة إلّا لحدوثه عند السبب . ثم استشهد بآيات كثيرة مثل : **﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها﴾** وكثير من أمثال ذلك ، بالإضافة الى استعمال القرآن صيغة الماضي في وقوع الحوادث التي وقعت في عهد النزول على النبي ﷺ بعد حدوثها ، فكيف يستعمل صيغة الماضي قبل وقوع الحوادث التي وقعت في المدينة في حال التسليم بنزوله كاملاً في مكة ليلة القدر ؟ .

ثم قال : وقد يجوز في الخبر الوارد بنزول القرآن جملة في ليلة القدر ، أنّه نزل جملة منه في ليلة القدر ، ثم تلاه ما نزل منه الى وفاة النبي ﷺ . فأمّا أن يكون نزل بأسره وجميعه في ليلة القدر ، فهو بعيد مما يقتضيه ظاهر القرآن ، والمتواتر من الأخبار ، وإجماع العلماء على اختلافهم في الآراء[١] .

أوّل ما نزل من القرآن وآخر ما نزل منه :

إنّ أوّل ما نزل من القرآن هو قوله تعالى : **﴿بسم الله الرحمن الرحيم* إقرأ باسم ربّك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * إقرأ وربّك الأكرم* الذي علّم بالقلم * علّم الإنسان ما لم يعلم﴾** فهذه الآيات الخمس بعد البسملة ، هي أول ما نزل من القرآن على النبي ﷺ في غار حراء . أمّا الآيات الأخرى من سورة العلق فقد نزلت بعد فترة من الزمن ثم وضعت في موضعها الذي هي فيه من السورة ، غير أن هناك

---

(١) تصحيح اعتقاد الصدوق : ص ٢٣٣ .

آراء وروايات تتحدّث عن أن أول ما نزل من القرآن هو سورة المدّثر ، وأُخرى تذهب الى أن أول ما نزل من القرآن هو سورة الفاتحة . واختار الطوسي والطباطبائي في تفسيريهما : أنّ أول ما نزل من القرآن ، هو الآيات الخمس من سورة العلق .

وكما اختلف في أول ما نزل من القرآن ، اختلف كذلك في آخر ما نزل منه ، فقيل هي سورة براءة ، وقيل سورة : إذا جاء نصر الله والفتح ، وقيل سورة المائدة ، وقيل غير ذلك .

ويرجّح علماء الشيعة الامامية انّ آخر ما نزل من القرآن هو قوله تعالى : **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً﴾** .

لماذا نزل القرآن مفرّقاً :

أثار المشركون شبهة ملّخصها : أنّ نزول القرآن مفرّقاً يعني أن النبي ﷺ ليس مرسلاً بدين من الله سبحانه ، إذ لو كان وحياً إلهياً على زعمهم لنزل ديناً كاملاً مرة واحدة ، ونزوله مفرّقاً يعني أنّه قول البشر يتأمل نصوصه فيأتي بها .

فردّ عليهم القرآن ، وبيّن الحكمة من النزول مفرّقاً ، فقال تعالى : **﴿وقال الذين كفروا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبّت به فؤادك ورتّلناه ترتيلا﴾** [1] .

---

(١) سورة الفرقان ، الآية ٣٢.

ويمكن أن يكون سبب هذه الشبهة ما هو معروف من أخبار الديانات السابقة ، أنّ الكتب أنزلت مكتوبة جملة واحدة ، وكيفية نزول القرآن تختلف عن كيفية نزول التوراة والانجيل والزبور ، فالقرآن نزل قراءة ومفرّقاً ، أما تلك الكتب فقد نزلت مكتوبة جملة واحدة وبصيغتها الكاملة . وقد ذكر القرآن ذلك ، كما في قوله تعالى : **﴿وكتبنا له في الألواح من كلّ شيء موعظة وتفصيلاً لكلّ شيء فخذها بقوّة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين﴾** (١) .

وقال تعالى : **﴿ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربّهم يرهبون﴾** (٢) .

وهكذا يوضح القرآن أن التوارة أنزلت مكتوبة بشكلها الكامل في الألواح ، وبهذه الصيغة تلقّاها موسى ﷺ . وقد بيّن القرآن الحكمة من نزوله مفرّقاً في الآية (٣٢) من سورة الفرقان ، كما وبيّن ذلك في الآية (١٤٥) من سورة الأعراف .

وملخص الحكمة في الآيتين هو :

١ ـ لنثبّت به فؤادك .

٢ ـ لتقرأه على الناس على مكث .

فالحكمة إذن هي أن استمرار نزول الوحي ، وتواصل نزول

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٤٥ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٥٤ .

القرآن ومواصلة النبي بالقرآن، يثبّت فؤاد النبي ﷺ ويقوّي موقفه الجهادي في مواجهة التحدّيات أولاً، وثانياً أن الرسالة الاسلامية رسالة تغيير شامل، وتسعى لبناء مجتمع ودولة وحضارة، وتثبيت قانون ونظام. والتغيير والبناء يقتضي التدّرج في التبليغ لمواصلة عملية الهدم والبناء، ولترسخ الدعوة في النفوس، وتُستوعب العقيدة والأحكام والمفاهيم بشكل تدريجي، وليستقبل الناس التغيير على مراحل، وليتفاعلوا مع مبادئ القرآن، وتتهيّأ النفوس لتحمّل التكاليف.

وهكذا يكون العامل الزمني والنزول التدريجي قضية ضروريّة للنبي ﷺ وللمجتمع كما يوضح القرآن ذلك.

ولعل البحث يدعونا الى أن نذكر أن الرسول ﷺ كان نبيّاً قبل أن يبعث رسولاً، أي قبل أن ينزل عليه القرآن في غار حراء، وهذا يعني أنّ النبي ﷺ كان يتلقى تعاليم قرآنية بمعانيها ودلالاتها ليُعدّ ويُهيّأ لمهمة تلقّي القرآن، وحمل الرسالة الكبرى.

وقد ذهبت بعض الآراء الى أنّ النبي ﷺ تلقّى ـ وحياً ـ الأركان الأساسية والخطوط الكبرى لأمّهات الكتاب جملة واحدة، ثم نزل القرآن بأكمله مفرّقاً عبر سنيّ التنزيل.

حفظ القرآن من التحريف

لم يحظ كتاب على وجه البسيطة بالعناية والاهتمام كما حظي القرآن الكريم، فمنذ بدأ الوحي وتلقّى النبي صلى الله عليه وآله هذا الخطاب الإلهي المقدّس، كان اهتمامه صلى الله عليه وآله به عظيماً، وشغفه به فريداً، وحبّه له منقطع النظير.

وقد خلّد الوحي الإلهي هذا الإهتمام النبوي بنص قوله: **﴿لاتحرّك به لسانك لتعجل به * إنّ علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه﴾** [1].

سجّل المؤرخون وكتاب السير، والمهتمون بعلوم القرآن وتأريخه، أن النبي صلى الله عليه وآله كان يدوّن كل ما ينزل عليه من وحي، وأنّ عدداً من الصحابة كان يحفظ القرآن. كما دلّت الروايات التأريخية أن عدداً من الصحابة كانت لهم مصاحف يختلف ترتيب السور فيها من صحابي الى صحابي آخر، وعدّوا مصحف الإمام علي عليه السلام، ومصحف عبد الله بن مسعود، ومصحف أُبي بن كعب رضي الله عنه... الخ.

---

(١) سورة القيامة، الآية ١٦ـ١٨.

ولقد تلقى المسلمون القرآن الكريم جيلاً بعد جيل بالحفظ والقراءة والتفسير والمدارسة ، وبشكل متواتر ، لا يعطي مجالاً لأحد أن يخفي ، أو يسقط شيئاً منه ، كما ليس بوسع أحد أن يضيف إليه لنشوز المضاف ، وتميّزه عن كلام الله تعالى . ولوجود الحفّاظ والمصاحف المكتوبة .

ومما يؤكّد هذه الحقيقة هو قول الله سبحانه : **﴿إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾** ، وقوله : **﴿لا تحرّك به لسانك لتعجل به * إنّ علينا جمعه وقرآنه﴾** .

وبهاتين الآيتين تعهّد الله سبحانه بحفظ القرآن من التحريف والضياع ، فقد تعهّد بجمعه كاملاً ، وبحفظه من التحريف والضياع والاندراس .

وناقش العلماء المختصون ما رواه البعض من روايات ضعيفة وموضوعة عن بعض الرواة المتّهمين ، من المنتمين الى المذاهب السنيّة والشيعية ، وأسقطوها من الاعتبار ، وأجمعوا على سلامة القرآن وصيانته من التحريف ـ ولله الحمد ـ .

وقد عبّر أساطين العلماء من الشيعة الامامية عن سلامة القرآن وصيانته من التحريف .

ومن المفيد أن نورد بعضاً منها .

قال الشيخ الطوسي مدافعاً عن صيانة القرآن من التحريف وردّه على ما يردده البعض :

(وأما الكلام في زيادته ونقصانه، فممّا لا يليق به أيضاً، لأن الزيادة فيه مجمع على بطلانها، والنقصان منه فالظاهر أيضاً من مذهب المسلمين خلافه، وهو الأليق بالصحيح من مذهبنا، وهو الذي نصره المرتضى ﵀ وهو الظاهر في الروايات. غير أنّه رويت روايات كثيرة من جهة الخاصة والعامة بنقصان كثير من آي القرآن، ونقل شيء منه من موضع الى موضع، طريقها الآحاد التي لا توجب علماً ولا عملاً)[1].

ويوضح العلماء المختصون أن ما ورد من روايات عن أئمة أهل البيت ﵈ تتحدث عن التحريف إنّما هي تعني تحريف معنى القرآن بتفسيره أو قراءته على غير ما أنزل، مما يغيّر معناه ودلالته، وحذف ما ورد عن علي ﵇ من تفسيره وتأويله الذي تلقّاه عن رسول الله ﷺ وأثبته على المصحف الذي كتبه بيده.

وليس التحريف هو الحذف من حروفه وكلماته وآياته وسوره أو الإضافة إليه، وقد وضّح الشيخ المفيد ﵀ ذلك بقوله: (وقد قال جماعة من أهل الإمامة إنه لم ينقص من كلمة، ولا من آية، ولا من سورة، ولكن حذف ما كان مثبتاً في مصحف أمير المؤمنين ﵇ من تأويله وتفسير معانيه على حقيقة تنزيله)[2].

---

(١) تفسير التبيان، المقدمة: ٣/١.

(٢) أوائل المقالات: ص ٩٤.

جمع القرآن

قال الله تعالى : ﴿لا تُحَرِّك به لسانَكَ لِتَعجَل به * إنَّ علينا جَمعَهُ وقرآنَهُ * فإذا قرآناهُ فاتَّبِع قرآنَهُ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾ .

وقال تعالى : ﴿سنقرئك فلا تنسى إلّا ما شاء الله﴾ .

من القضايا المسلّم بها لدى جميع المسلمين أن القرآن نزل على النبي ﷺ مُفرّقاً على امتداد ثلاثة وعشرين عاماً ، وهي مدة نزول الوحي والرسالة ، وأن الرسول ﷺ كان إذا نزل عليه الشيء من القرآن قام بتبليغه ، وبيان ما فيه من العمل والتطبيق الى من حوله ، فيتلقاه منه أصحابه بالقراءة والحفظ .

روى عبادة بن الصامت قال : (كان رسول الله ﷺ يشغل ، فإذا قدم رجل مهاجر على رسول الله ﷺ دفعه الى رجل منّا يعلّمه القرآن) (٢) .

---

(١) سورة القيامة ، الآية ١٦ ـ ١٨ .

(٢) مسند أحمد : ٥/٣٢٤ .

وروى كليب قال : (كنت مع علي عليه السلام فسمع ضجتهم في المسجد يقرأون القرآن ، فقال : طوبى لهؤلاء . . .)[1] .

وعن عبادة بن الصامت قال : (كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي صلى الله عليه وآله وسلم الى رجل منا يعلّمه القرآن ، وكان يُسمع بمسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ضجة بتلاوة القرآن ، حتى أمرهم رسول الله أن يخفضوا أصواتهم ؛ لئلا يتغالطوا)[2] .

وقد رغّب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين ، وحثّهم على حفظ القرآن وتدارسه وتعليمه ، فنشطت حركة القراءة والحفظ والتعليم ، واشتدت العناية بكتاب الله العزيز ، فكان في جيل الصحابة من يحفظ القرآن حفظاً كاملاً على عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وأبي بن كعب ، وأبو الدرداء ، وسعد بن عبيد بن النعمان ، وثابت بن زيد بن النعمان ، ومعاذ بن جبل ، وعبيد بن معاوية بن زيد بن ثابت[3] ، وكان هناك من يحفظ بعضه والكثير منه .

ويستفاد من الأخبار اهتمام جيل الصحابة البالغ بحفظ القرآن وتلاوته .

كما روي أن بعض الصحابة كان يعرض حفظه على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليتأكد من حفظه .

---

(١) كنز العمال ، فضائل القرآن ط ٢ : ٢٨٨/٢ رقم ٤٠٢٥ .

(٢) مناهل العرفان : ص٣٠٨ .

(٣) ابن النديم ، الفهرست : ص ٣٠ .

ومن الثابت لدى المسلمين جميعاً أن رسول الله ﷺ كان له كتّاب يكتبون مايتنزل من الوحي فيدوّن على العسب واللخاف وجريد النخل .

قال اليعقوبي : (وكان كتّابه الذين يكتبون الوحي والكتب والعهود : علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وعمرو بن العاص بن أمية ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وشرحبيل بن حسنة ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، والمغيرة بن شعبة ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وحنظلة بن الربيع ، وأُبيّ بن كعب ، وجهيم بن الصلت ، والحصين بن النميري)[1] .

وقال زيد بن ثابت : (كنا عند النبي ﷺ نؤلّف القرآن من الرقاع)[2] .

ويتحصل من ذلك : أن الله سبحانه تعهد بحفظ القرآن من الضياع والتحريف ، كما نصت الآيات الآنفة الذكر . وأنّ الحقائق التأريخيّة تدحض شبهات التحريف التافهة .

فقد كان العشرات من جيل الصحابة يحفظون القرآن عن ظهر قلب ، وأنّ القرآن كان مجموعاً ومدوناً على عهد رسول الله ﷺ على قطع من الجلد أو الجريد أو اللخاف أو العسب . . . الخ .

---

(١) تاريخ اليعقوبي : ٢/ ٨٠ . ابن الأثير ، الكامل في التأريخ : ٢/ ٣١٣ .
(٢) جلال الدين السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن : ج ١ ص ١٧٢ .

روايات جمع القرآن :

وإذا تأكد لنا أن رسول الله ﷺ كان قد دوّن القرآن على جريد النخل واللخاف والعسب . . . الخ .

وأن القرآن كان مجموعاً في صدور الحفاظ فما معنى جمع القرآن الذي تحدثت به الروايات التأريخية بعد النبي ﷺ وبشكل متعارض ، فكان بعضها يقول ان أبا بكر قد جمع القرآن ، وبعضها يقول إن عمر بن الخطاب كان قد جمع القرآن ، وبعضها يقول إنَّ عثمان هو الذي جمع القرآن ، وأُخرى تقول أنَّ الذي جمعه هو الامام علي عليه السلام .

فيما يلي نستعرض بعضاً من تلك الروايات :

روى زيد بن ثابت ، قال : (أرسل إليَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده . قال أبو بكر : إن عمر أتاني ، فقال : إن القتل قد استَحَرَّ يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإني أخشى أن يستحرّ القتل بالقُرّاء بالمواطن ، فيذهب كثير من القرآن ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن . قلت لعمر : كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال عمر : هذا والله خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيتُ في ذلك الذي رآى عمر ، قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجلٌ شابٌ عاقل لانتّهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتّبع القرآن بأجمعه ، فوالله لو كلّفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ ممّا أمرني به من جمع القرآن . قلت : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال : هو والله خيرٌ ، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى

شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر ، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب ، واللِّخاف ، وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خُزيمة الأنصاري ، لم أجدها مع أحد غيره .

﴿لقد جاءَكُم رسولٌ من أنفُسِكُمْ عزيزٌ عليهِ ما عَنِتُّم حَريصٌ عليكُمْ بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيم * فإنْ تَوَلَّوا فَقُلْ حَسْبيَ الله لا إلهَ إلّا هُوَ عليهِ توكَّلْتُ وَهُوَ ربُّ العَرْشِ العظيم﴾[1] .

حتى خاتمة براءة فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر)[2] .

وهناك روايات تقول ان عمر بن الخطاب هو الذي جمع القرآن : فقد روى يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب ، قال : (أراد عمر بن الخطاب أن يجمع القرآن فقام في الناس ، فقال : من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأتنا به ، وكانوا كتبوا ذلك في الصحف ، والألواح ، والعسب ، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان ، فقتل وهو يجمع ذلك إليه ، فقام عثمان ، فقال : من كان عنده من كتاب الله شيء فليأتنا به ، وكان لا يقبل من ذلك شيئاً حتى يشهد عليه شهيدان ، فجاء خزيمة بن ثابت ، فقال : إني قد رأيتكم تركتم آيتين لم تكتبوهما ، قالوا : ما هما ! قال : تلقيت من رسول الله ﷺ : (لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم . . .) . الى آخر

---

(١) سورة التوبة ، الآية ١٢٨ ـ ١٢٩ .

(٢) صحيح البخاري ، باب جمع القرآن : ٢٢٥/٣ دار المعرفة ـ بيروت .

السورة فقال عثمان : وأنا أشهد أنهما من عند الله ، فأين ترى أن نجعلهما ؟ قال أختم بهما آخر ما نزل من القرآن فختمت بهما براءة)[١] .

وهناك روايات تقول أن عثمان بن عفان هو الذي جمع القرآن : فقد روى ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه : (أنّ حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق . فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة . فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان الى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ، ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة الى عثمان فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردّ عثمان الصحف الى حفصة ، وأرسل إلى كل افق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق)[٢] .

---

(١) البيان في تفسير القرآن للخوئي : ص ٢٦٠ .

(٢) راجع صحيح البخاري بحاشية السندي ، باب جمع القرآن : ٢٥٥/٣ ، دار المعرفة - بيروت .

قال ابن شهاب : وأخبرني خارجة بن زيد بن ثابت سمع زيد بن ثابت قال : فَقدتُ آيةً من الأحزاب حين نسخنا المصحف ، قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها ، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري .

﴿من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ (١) فألحقناها في سورتها في المصحف (٢) .

وعن محمد بن اسحاق : روى الثقة أن حذيفة بن اليمان قَدِم على عثمان بن عفان ، وكان بالعراق ، وقال لعثمان : أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى . فأرسل عثمان الى حفصة أن أرسلي الينا بالصحف ننسخها في المصاحف ، ثم نردُّها إليك ، فأرسلت بها حفصة الى عثمان ، فأمر عثمان زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف) (٣) .

وهناك روايات تقول إنّ الإمام علي بن أبي طالب ﷺ هو الذي جمع القرآن .

قال اليعقوبي : (روى بعضهم أن علي بن أبي طالب كان جمعه لما

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٢٣ .

(٢) راجع صحيح البخاري بحاشية السندي ، باب جمع القرآن : ٣/٢٢٦ . دار المعرفة ـ بيروت .

(٣) ابن النديم ، الفهرست : ص٣٧ دار المعرفة ـ بيروت .

قُبض رسول الله ، وأتى به يحمله على جمل ، فقال : هـذا القـرآن قـد جمعته ، وكان قد جزّأه سبعة أجزاء . . .)[1] .

ونقل ابن النديم في كتابه الفهرست : (. . . عن علي عليه السلام أنه رأى من الناس طَيَرة عند وفاة النبي صلى الله عليه وآله فأقسم أنه لا يضع عن ظهره رداءه حتى يجمع القرآن ، فجلس في بيته ثلاثة أيام حتى جمع القـرآن ، فـهو أول مصحف جمع فيه القرآن من قلبه ، وكان المصحف عند أهـل جـعفر ، ورأيت أنا في زماننا عند أبي يعلى حمزة الحسني رحمه الله مصحفاً قد سـقط منه أوراق بخط علي بن أبي طالب يتوارثه بنو حسن على مرّ الزمـان ، وهذا ترتيب السور من ذلك المصحف . . .)[2] .

ونجد في روايـة إسـلام عـمر وثـيقه تأريـخه تـؤيد عـناية رسـول الله صلى الله عليه وآله بتدوين القرآن في مكة المكرّمة ، ومن بدء نزوله ، والمواظبة على حفظه ، وأنه كان يتداول بينهم مكتوباً على صحف تحوي النـازل منه كله أو بعضه آنذاك ، كما كان يتداول حفظاً .

فقد جاء في تلك الرواية : (. . . فرجع عمر عامداً الى أخته وختنه ، وعندهما خباب بن الأرت معهُ صحيفة ، فيها (طـه) يُـقرءهما إيـاها ، فلما سمعوا حسّ عمر ، تغيَّب خباب في مـخدع لهـم ، أو فـي بـعض البـيت ، وأخـذت فـاطمة بـنت الخـطاب الصـحيفة فـجعلتها تـحت

---

(١) تاريخ اليعقوبي : ٢/١٣٥ .

(٢) الفهرست ، ابن النديم : ص ٤١ ـ ٤٢ .

فخذها . . .)[1] .

وجاء أيضاً أن عمر هاجم بيت أخته فاطمة وزوجها ، وهما يقرنان القرآن ، فضربهما ، فقالت له اخته : (وإن كان الحق في غير دينك انـي أشهد أن لا اله إلّا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فقال عمر : أعطوني الكتاب الذي هو عندكم فأقرأه ، وكان عمر يقرأ الكتاب ، فقالت أخته : إنّك رجس ، وإنه لا يمسه إلّا المطهرون فقم واغتسل أو توضأ ، فقام فتوضأ ، ثم أخذ الكتاب ، فقرأ (طه) حتى انتهى الى : **﴿إنني أنا الله لا إله إلّا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾** . . .)[2] .

ودراسة هذه الوثيقة تؤكد أن الرسول ﷺ كان يدوّن القرآن من بدء الدعوة في مكة المكرمة . وذلك واضح في عبارتي (معه صحيفة فيها طه) . (وأعطوني الكتاب الذي هو عندكم فأقرأه) فحوادث هذه الوثيقة ، كما يذكر المؤرخون ، كانت في المرحلة السرية ، وكما تشير الحادثة ذاتها الى ذلك ، مما يكشف المشروع النبوي لتدوين القرآن وجمعه مدوناً ، إضافة الى جمعه في صدور الحفاظ ، كما ذكر .

وقد قام المرجع الديني الراحل السيد ابو القاسم الخوئي ﷺ بدراسة وتحليل هذه الروايات ونقدها ، واستخلاص النتائج بشكل علمي متين منها في كتابه البيان في تفسير القرآن .

---

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية : ج ١ ، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦ ط سنة ١٩٧٥ م ، دار الجيل ـ بيروت .

(٢) السيوطي ، تأريخ الخلفاء : ص١٠٣ ـ ١٠٤ ، دار الفكر ـ بيروت .

ويمكننا أن نستخلص من مجموع تلك الروايات ما يلي :

١ ـ ان القرآن كان مدوناً بكامله على عهد رسول الله ﷺ وأنه كان محفوظاً بكامله في صدور الحفاظ .

٢ ـ ان روايات الجمع : يقصد بها تدوين كامل القرآن في مصحف موحّد ، بدلاً من كونه متناثراً في العسب واللخاف وقطع القماش والقراطيس والجريد . . . الخ .

وهذا ما قام به الإمام علي عليه السلام من حفظه ، كما تفيد الروايات ، وأصرحها ما نقله ابن النديم : (فهو أول مصحف جمع فيه القرآن من قلبه) .

٣ ـ ان ما قام به عثمان بن عفان ، كما تفيد الروايات ، كان سببه هو الاختلاف في القراءات ، لذا فإن عمل عثمان تركّز في توحيد القراءات من خلال كتابة مصحف جمع فيه كامل القرآن ، كما تفيد رواية ابن الأثير في الكامل .

٤ ـ إنّ احتمال أن يقوم بتدوين القرآن ، في مصحف موحّد أكثر من صحابي في آن واحد مسألة مقبولة ، ولا تعني التعارض .

ترتيب القرآن:

لقد اصطلح القدماء على ترتيب القرآن ـ ترتيب ـ سور القرآن وآياته داخل السورة ـ اصطلحوا على تسمية ذلك : بالتأليف .

فمصطلح تأليف القرآن يعني جمع آياته ، وسوره حسب ترتيبها في المصحف .

جاء في المصباح المنير : (والألفة أيضاً اسم من (الائتلاف) وهو الألتيام والاجتماع ...) .

وجاء هذا الاستعمال على لسان زيد بن ثابت في قوله : (كنّا عند النبي ﷺ نؤلّف القرآن من الرقاع) (١) .

وقال اليعقوبي حين ذكر ترتيب سور القرآن النازلة في مكة . قال : (وقد اختلف الناس في هذا التأليف في غير رواية ابن عباس ، وكان الاختلاف يسيراً) (٢) .

أخرج البخاري عن ابراهيم بن موسى أخبرنا هشام بن يوسف أنَّ جريج أخبرهم قال : وأخبرني يوسف بن ماهك قال : إنّي عند عائشة امّ المؤمنين (رض) إذ جاءها عراقي فقال : أيّ الكفن خير ؟ قالت : ويحك وما يضرّك ؟ قال : يا أمّ المؤمنين أرني مصحفك ، قالت : لم ؟ قال : لعلّي أؤلّف القرآن عليه فإنّه يُقرأ غير مؤلّف ، قالت : وما يضرّك أيّه قرأت قبلُ إنّما نزل أوّل مانزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنّة والنار ، حتى إذا ثاب الناس الى الاسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أوّل شيء لاتشربوا الخمر ، لقالوا : لاندع الخمر أبداً ، ولو نزل لاتزنوا لقالوا : لاندعُ الزنا أبداً ، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ ـ وإني لجاريةٌ ألعبُ ـ بل الساعةُ موعدُهم والساعةُ أدهىٰ وأمَرّ ، وما نزلت البقرة

---

(١) جلال الدين السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن : المكتبة العصرية ، صيدا ـ بيروت (ط . سنة ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م) / ج ١ ص ١٦٤ .

(٢) تاريخ اليعقوبي : ٣٤/٢ .

والنساء إلّا وأنا عنده . قال : فأخرجتْ له المصحف فأمْلَت عليه آي السورة[1] .

إن القرآن الذي بين أيدينا الآن يحوي ترتيبين هما :

١ ـ ترتيب الآيات في سورها .

٢ ـ ترتيب السور في المصحف .

١ ـ ترتيب الآيات في سورها :

وهذا الترتيب يشكّل السياق القرآني ، ويؤثّر تأثيراً بالغاً في المعنى ، وتغييره تغيير في بنية القرآن ومعناه .

وتثبت الروايات أن تنظيم الآيات ، وترتيبها ضمن كل سورة ، هو تنظيم وترتيب إلهي توقيفي .

قال ابن عباس : (كان جبريل إذا نزل على النبي بالوحي يقول له : ضع هذه الآية في سورة كذا ، في موضع كذا . فلما نزل عليه : **﴿اتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله﴾** قال : ضعها في سورة البقرة)[2] .

وكان المسلمون يعرفون ذلك حتى أن الحجاج بن يوسف الثقفي كان يخطب الناس يوماً فقال : (ألّفوا القرآن ، كما ألّفه جبريل ﷺ)[3] .

---

(١) صحيح البخاري بحاشية السندي ، باب تأليف القرآن : ج٣ ص٢٧٧ ، دار المعرفة ـ بيروت .

(٢) تاريخ اليعقوبي : ج٢ ص٤٣ . دار صادر ـ بيروت .

(٣) صحيح مسلم ج ٤ : كتاب الحج ، رقم ٣٠٦ ، ص٣٥٦ ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط . سنة ١٤١٥هـ .

وتفيد الروايات التأريخية، وتؤيدها دلالات الآيات أن كثيراً من الآيات المتتالية في ترتيبها داخل السورة الواحدة ليس ضرورياً أن تكون نزلت متسلسلة تسلسلاً زمنياً، الواحدة بعد الأخرى، بل إن هناك فترة زمنية ربما كانت طويلة بين آية وأخرى، وأن ما نزل بعد هذه الآية في تسلسله الزمني ربما وضع في موقع آخر، في حين وضعت آية الى جوار الآية السابقة، رغم التباعد الزمني بينها. كما أن بعضها قد نزل في مكة المكرمة ونجده في سورة مدنية.

ونستطيع أن نأخذ مثالاً للدراسة سورة العلق، فنكتشف من خلال تحليل مضامين آياتها الفارق الزمني بين آيات تلك السورة، إذ تتكون هذه السورة من مقطعين من الآيات: الأول منها يبدأ من قوله تعالى: **﴿بسم الله الرحمن الرحيم * إقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * إقرأ وربك الأكرم الذي علَّم بالقلم * علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾** أما المقطع الثاني فيتكون من الآيات الأخرى المتبقية من السورة.

ومن خلال الدراسة التحليلية للمصطلحات والمفاهيم والوقائع التأريخية نكتشف الفارق الزمني بين مقطعي السورة، وكما ذكر العلماء المهتمون بالنزول وتأريخ القرآن، فإن آيات كثيرة نزلت بعد مقطع الآيات الأولى، وقبل آيات المقطع الثاني في حين وضعت هذه الآيات في هذا الموقع من سورة العلق، ولم توضع الآيات التي نزلت قبلها، كآيات سورة المدثر والمزمل ... الخ في هذه السورة، مما يدل على أن وضع الآيات في موضعها المثبت في القرآن الكريم هو أمر إلهي، وقائم

على اتساق وترابط سياق ، كما روى ابن عباس آنفاً .

ولكي يتضح ذلك ننقل آراء المفسرين التي أرخت لنزول هذين المقطعين من الآيات .

قال الشيخ الطوسي : (روي عن عائشة ، ومجاهد وعطاء وابن سيار : أن أول آية نزلت قوله تعالى : **﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق﴾** وهو قول أكثر المفسرين . وقال قوم أول ما نزل قوله تعالى **﴿يا أيها المدثر﴾** [1] .

وفي الحديث عن أسباب نزول آيات المقطع الثاني قال : (وقوله : **﴿أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى﴾** تقرير للنبي ﷺ واعلام له ما يفعله بمن ينهاه عن الصلاة .

وقيل : إن الآيات نزلت في أبي جهل بن هشام . والمراد بالعبد في الآية النبي ﷺ فإن أبا جهل كان ينهى النبي عن الصلاة . . .) [2] .

ومن الواضح تأريخياً أن صلاة النبي المعلنة والتي كان ينهاه أبو جهل عنها تكشف أن تلك الحوادث قد وقعت بعد ما كان النبي ﷺ يصلي بشكل معلن ، وأن أبا جهل كان قد دعي الى الهدى فأعرض عن تلك الدعوة ، ولم تحدث دعوة النبي لأبي جهل وتكذيبه للنبي وصده له عن الصلاة ورد الرسول ﷺ على أبي جهل وانتهاره له إلا بعد فترة زمنية طويلة تفصل بين نزول الآيات الخمس الأولى وما بعدها .

---

(١) التبيان : ١٠ تفسير سورة العلق .

(٢) المصدر السابق .

كما أن هناك سوراً مكية فيها آيات مدنية ، مثل سورة (القلم) ، قال الطبرسي ﷺ : (وتسمى أيضاً سورة : ن ، وهي مكية ، عن الحسن وعكرمة وعطاء ، وقال ابن عباس وقتادة من أولها الى قوله : **﴿سنسمه على الخرطوم﴾** مكي ، وما بعده الى قوله : **﴿لو كانوا يعلمون﴾** مدني ، وما بعده الى قوله : **﴿يكتبون﴾** مكي ، وما بعده مدني وهي اثنتان وخمسون آية بالاجماع)[1] .

٢ ـ *ترتيب السور في المصحف:*

ومن القضايا التي ينبغي التعرف عليها في ترتيب القرآن وتأليفه ، هو ترتيب سوره بالشكل القائم بين الدفتين في المصحف المتداول بين المسلمين ، والذي يبدأ بسورة الفاتحة ، وينتهي بسورة الناس ، وبمراجعة الوثائق التأريخية المختلفة يتضح لنا أن هذا الترتيب مؤسس على اختيار عدد من الصحابة في عهد الخليفة عثمان بعد أن وحّد القراءات ، واستنسخ عدداً من المصاحف . فلم يكن ترتيب السور حسب نزولها مثبتاً في القرآن . فالمعروف أن أول سورة نزلت من القرآن هي سورة العلق .

وقيل إنّ سورة العلق هي أوّل سورة نزلت للنبوة ، وإنّ المدثر أوّل سورة نزلت للرسالة[2] .

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن : ٤٩٦/٩ ط دار المعرفة .

(٢) الزركشي ، البرهان في علوم القرآن : ج ١ .

أمّا آخر سورة نزلت منه فقد اختلف فيها ، فقيل : سورة براءة ، وقيل : سورة إذا جاء نصر الله ، وقيل : سورة المائدة ، وقيل غير ذلك .

ويرجح علماء الشيعة إلى أنّ آخر ما نزل من القرآن هو قوله تعالى : **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا﴾** .

وتثبت الروايات التأريخية أن هناك أكثر من ترتيب تأريخي للسور القرآنية على عهد الصحابة ، ثم وُحّد في مصحف عثمان فتلك الروايات تذكر أن هناك ترتيباً خاصاً بمصحف الإمام علي ، كما جاء في تأريخ اليعقوبي : (وروى بعضهم أن علي بن أبي طالب عليه السلام كان جمعه لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأتى به يحمله على جمل ، فقال : هذا القرآن قد جمعته . . .)[1] .

غير أن اليعقوبي لم يذكر لنا الى من حمل علي عليه السلام القرآن ، ومن هو المخاطب بقول علي عليه السلام : (هذا القرآن قد جمعته) ؟

كما أن اليعقوبي لم يذكر جواب المخاطب ! ثم واصل بعد ذلك حديثه عن ترتيب مصحف علي عليه السلام : كالآتي : (وكان قد جزّأه سبعة أجزاء . . . [2] .

---

(١) تاريخ اليعقوبي : ٢/١٣٥ .

(٢) المصدر السابق : ص ١٣٥ ـ ١٣٦ .

وهناك ترتيب السور في مصحف عبد الله بن مسعود ، وهناك ترتيب السور في مصحف أبي بن كعب ، وهناك ترتيب السور في مصحف عبد الله بن عباس .

والاختلاف في ترتيب السور لا يضر في معنى ونظم القرآن وسياقه ومعناه ، كما هو الحال في ترتيب الآيات .

والذي يبدو من هذه الصور التنظيمية المختلفة للقرآن أن تنظيمه لم يكن مسألة توقيفية محدَّدة في ذلك الوقت ، بل كان الصحابي يدون سور القرآن ضمن الترتيب الذي يختاره . وروايات تعدد ترتيب المصاحف تدل أيضاً على أن أكثر من صحابي كان قد جمع القرآن مُدوناً في مصحف واحد ، مما يسقط الروايات التي ذكرت أن عثمان ، هو أول من جمع القرآن ، أو أن أبا بكر هو أول من جمعه .

ومن المؤسف أننا الآن لا نجد الوثائق المثبتة لتسلسل السور والآيات حسب نزولها التأريخي بشكل دقيق وكامل ، وقد ذكر أن الإمام علياً ﷺ كان قد رتّب الآيات حسب نزولها ، كما أنه أثبت تفسير وتأويل بعض الآيات في هذا المصحف ، ممّا يساهم في فهم المعنى والوقائع والحوادث ومصاديق الآيات ، وفهم كثير من الأحكام .

وجدير ذكره أن هناك خطأً في بعض الروايات التأريخية التي ذكرت تسلسل السور حسب نزولها .

فمثلاً : أن ابن النديم ذكر في الفهرست [1] : أن سورة (الكوثر)

---

(١) ص ٣٧.

نزلت بعد سورة (العاديات) ومما يسقط هذه الرواية أن سورة (الكوثر) نزلت في مكة بعد وفاة عبد الله ابن النبي ﷺ ؛ أثر قول العاص بن وائل السهمي في النبي أنه (الأبتر) أي الذي لا ولد له يعقبه. في حين أن سبب نزول سورة (العاديات) هي احدى الغزوات (ذات السلاسل) وكانت الغزوات في المدينة المنورة، وبذا يكون نزولها في المدينة، كما يكون نزول الكوثر قبل نزول العاديات.

وقد انعكس هذا الاختلاف في آراء الصحابة والمفسرين فقد نقل الطبرسي في مجمع البيان: (سورة العاديات مدنية عند ابن عباس وقتادة، وقيل مكية) وهي في المصحف (مكية) أما الطوسي فقد قال في التبيان: (مكية في قول ابن عباس، وقال الضحاك: هي مدنية).

وقد عدّها اليعقوبي: (سورة مدنية ...)[1].

أما ابن النديم فقد روى عن مجاهد أنها (مكية)[2].

ويرجح مدنيتها أن المفسرين ومن كتبوا في أسباب النزول ذكروا أنها نزلت في غزوة ذات السلاسل[3]، إذ بعث رسول الله الإمام علياً عليه السلام فحقق نصراً كبيراً فأخبر الله نبيه بهذا النصر بهذه السورة.

وروي أيضاً (أن رسول الله ﷺ بعث سرية الى حي بني كنانة

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ج٢ ص٤٣.

(٢) الفهرست: ص٣٧.

(٣) العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ج٢٠ ص٣٤٥.

واستعمل عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري، فتأخر خبرهم، فقال المنافقون: قتلوا جميعاً، فأخبر الله تعالى عنها، فأنزل... والعاديات ضبحاً يعني تلك الخيل)[1].

ومن الواضح أن الغزوات جميعها وقعت في المدينة المنورة، لذا فان نزول هذه السورة في المدينة يكون هو الأرجح، لأنها تتحدث عن الغزو وإغارة الخيل.



(١) الواحدي، أسباب النزول: ص ٣٠٥. الطوسي، التبيان: ص٣٩٨.

المكي والمدني

لقد بدأ نزول الوحي في مكة المكرمة في غار حراء في شهر رمضان المبارك على الرسول ﷺ ، واستمر نزوله ثلاثة عشر عاماً ، وسمي ما نزل من القرآن في مكة (بالمكي) ، وبعد هجرته المباركة الى المدينة المنورة استمر نزول الوحي عليه حتى التحاقه بالرفيق الأعلى .

وقد استمرت هذه الفترة طوال عشر سنوات . وسمي ما نزل من القرآن في المدينة (بالمدني) .

كما سمي مدنياً أيضاً ما نزل على الرسول ﷺ خارج المدينة في غزواته الكثيرة خارج المدينة المنورة .

حتى ما نزل منه في مكة المكرمة أو على مقربة منها . فالفاصل بين المكي والمدني ، هو مرحلي أيضاً . (مرحلة مكة والمدينة) . وليس مكانياً فحسب .

ومما أثبته الباحثون في علوم القرآن والسيرة أن آيات نزلت في المدينة قد وضعت في سور مكية ، كما في سورة إبراهيم المكية ، عدا آيتين منها ، كما انّ آيات مكية ، قد وضعت في سور مدنية .

التفسـير

التفسير في اللغة:

قال الراغب الإصفهاني : (الفسر : إظهار المعنى المعقول ، ومنه قيل لما ينبئ عنه البول : تَفْسرة ، وسمي بها قارورة الماء ، والتفسير في المبالغة كالفَسْر . والتفسير قد يقال فيما يختص بمفردات الألفاظ وغريبها ، وفيما يختص بالتأويل ، ولهذا يقال تفسير الرؤيا وتأويلها .

قال عزّ وجل : ﴿ **وأحسن تفسيراً** ﴾[1] .

(الفَسْر : البيان)[2] .

(فَسَرَ الشيء يَفسِرُهُ بالكسر ، ويفسُرُهُ بالضم ، فسْراً . وفسَّره : أبانه . والتفسير مثله . ابن الاعرابي .

التفسير والتأويل والمعنى واحد . وقوله ﷺ : ﴿ **وأحسن تفسيراً** ﴾ .

الفَسْر : كشف المغطى . والتفسير : كشف المراد عن اللفظ المشكل . والتأويل : ردّ أحد المحتملين الى ما يطابق الظاهر ...)[3] .

---

(١) معجم مفردات الفاظ القرآن : مادة « فسر » .

(٢) مختار الصحاح : الرازي ، مادة « الفسر » .

(٣) ابن منظور ، لسان العرب : مادة « فسر » .

التفسير في الاصطلاح:

وإذاً فالتفسير في اللغة مأخوذ من الفَسْر : وهو : إظهار المعنى ، وكشف الغطاء والبيان .

ومنه التَفسْرة : وتعني ما يستدل بها على غيرها مما يرتبط بها . أي هي اسم لعملية الكشف عن الخفي بماهو ظاهر لوجود العلاقة بينهما .

ولفظ التفسير كغيره من الألفاظ التي أصبح لها معنى خاص في اصطلاح العلماء . فهو (التفسير) اسم لعلم من أهم العلوم والمعارف الإسلامية ، وأكثرها أثراً في حياة الأمة الفكرية والتشريعية والإجتماعية وغيرها من مجالات الحياة .

ومن استقراء التعاريف التي أوردها العلماء في كتبهم وتحديدهم لشخصية وهوية هذا العلم وأهدافه ، نجد التقارب بين معناه في الاصطلاح ، ومعناه في اللغة .

وقد عرّفه العلماء بعبارات يختلف بعضها عن بعض أحياناً . كما عرّفه البعض منهم بما عرّف به التأويل ، فلم يفرِّق بينهما ، بينما فرّق فريق آخر من العلماء بين التفسير والتأويل تفريقاً حدّياً ، بل واعتبر بعضهم عدم التفريق بينهما جهلاً بالتفسير وبعلوم القرآن .

وقال السيوطي ناقلاً عن الراغب تعريفه للتفسير : (وقال الراغب : التفسير أعم من التأويل ، وأكثر استعماله في الألفاظ ومفرداتها ، وأكثر

ما يستعمل التأويل في المعاني والجمل ، وأكثر ما يستعمل في الكتب الإلهية . والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها)[١] .

وقال غيره : (التفسير بيان لفظ لا يحتمل إلّا وجهاً واحداً . . .)[٢] .

وقال الماتريدي : (التفسير القطع على أن المراد من اللفظ هذا ، والشهادة على الله أنه عني باللفظ هذا ، فإن قام دليل مقطوع به فصحيح ، وإلّا فتفسير بالرأي وهو المنهي عنه . . .)[٣] .

وقال أبو طالب التَغْلبي : (التفسير بيان وضع اللفظ ، إمّا حقيقة ، أو مجازاً ، كتفسير الصراط بالطريق ، والصَّيِّب بالمطر . والتأويل تفسير باطن اللفظ ؛ مأخوذ من الأول ، وهو الرجوع لعاقبة الأمر ، فالتأويل إخبار عن حقيقة المراد ، والتفسير إخبار عن دليل المراد ؛ لأنَّ اللفظ يكشف عن المراد ، والكاشف دليل ؛ مثاله قوله تعالى : ﴿إنّ رَبَّكَ لبالمرصاد﴾[٤] ، تفسيره أنه من الرصْد ، يقال : رصدته رقبتَه ، والمرصاد (مفعال) منه ، وتأويله التحذير من التهاون بأمر الله والغفلة عن الأهبة والاستعداد للعرض عليه ؛ وقواطع الأدلّة تقتضي بيان المراد منه ؛ على خلاف وضع اللفظ في اللغة)[٥] .

---

(١) الاتقان في علوم القرآن : ١٦٧/٤ .

(٢) الإتقان في علوم القرآن : ١٦٧/٤ .

(٣) الاتقان في علوم القرآن : ١٦٧/٤ .

(٤) سورة الفجر ، الآية ١٤ .

(٥) الاتقان في علوم القرآن : ١٦٧/٤ ـ ١٦٨ .

وقال الأصبهاني في تفسيره : «إعلم أن التفسير في عُرف العلماء : كشف معاني القرآن ، وبيان المراد ؛ أعم من أن يكون بحسب اللفظ المشكل وغيره ، وبحسب المعنى الظاهر وغيره ، والتأويل أكثره في الجمل . والتفسير إمّا أن يستعمل في غريب الألفاظ نحو البَحيرة والسائبة ، والوَصيلة ، أو في وجيز يتبين بشرح ، نحو : أقيموا الصلوة وآتوا الزكاة ، وإمّا لكلام متضمن لقصة لا يمكن تصويره إلّا بمعرفتها ، كقوله : **﴿إنّما النسيء زيادة في الكفر﴾** وقوله : **﴿وليس البرُّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾** »[1] .

وقال أبو نصر القشيري : التفسير مقصور على الاتباع والسماع والاستنباط ؛ مما يتعلق بالتأويل .

وقال قوم : ما وقع مبَيناً في كتاب الله ومعيّناً في صحيح السنة سمّي تفسيراً ، لأن معناه قد ظهر ووضح ، وليس لأحدٍ أن يتعرّض إليه باجتهادٍ ولا غيره ؛ بل يحمله على المعنى الذي ورد ؛ لا يتعداه)[2] .

وقال الزركشي : (قال ابن فارس : معاني العبارات التي يعبّر بها عن الأشياء ترجع الى ثلاثة : المعنى ، والتفسير ، والتأويل ؛ وهي وإن اختلفت فالمقاصد بها متقاربة .

فأما المعنى : فهو القصد والمراد .

وأما التفسير في اللغة : فهو راجع الى معنى الاظهار والكشف . . .

---

(١) الاتقان في علوم القرآن : ١٦٨/٤ .

(٢) المصدر السابق : ١٦٨ .

فالتفسير : كشف المغلق من المراد بلفظه ، واطلاق للمحتبس عن الفهم به . . .) [١] .

واختلفوا فقيل : التفسير : كشف المراد عن اللفظ المشكل ، ورد أحد الاحتمالين الى ما يطابق الظاهر . . .) [٢] .

وقال الزركشي : (واعلم أن التفسير في عرف العلماء كشف معاني القرآن ، وبيان المراد أعم من أن يكون بحسب اللفظ المشكل وغيره ، وبحسب المعنى الظاهر وغيره ، والتفسير أكثره في الجمل) [٣] .

وقد عرّفه الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي بقوله : (التفسير : كشف المراد عن اللفظ المشكل) [٤] ، كما عرّف التأويل بقوله : (والتأويل ردّ أحد المحتملين الى ما يطابق الظاهر) [٥] .

وعرّفه السيد أبو القاسم الخوئي بقوله : (التفسير هو إيضاح مراد الله تعالى من كتابه العزيز ، فلا يجوز الاعتماد فيه على الظنون والاستحسان ، ولا على شيء لم يثبت أنه حجة من طريق العقل ، أو من طريق الشرع للنهي عن اتباع الظن ، وحرمة إسناد شيء الى الله بغير إذنه) [٦] .

---

(١) الزركشي ، البرهان في علوم القرآن : ٢/١٦٢ ـ ١٦٣ .

(٢) الزركشي ، البرهان في علوم القرآن : ٢/١٦٤ .

(٣) المصدر السابق : ١٦٤ ـ ١٦٥ .

(٤) مجمع البيان في تفسير القرآن ـ المقدمة : ص ٨٠ .

(٥) المصدر السابق .

(٦) السيد الخوئي ، البيان في تفسير القرآن : ص ٤٢١ .

أمّا الشهيد الصدر فقد عرّف التفسير بقوله: (فتفسير الكلام ـ أي كلام ـ معناه: الكشف عن مدلوله، وبيان معناه الذي يشير إليه اللفظ)(١).

وبعد أن عرّف الشهيد الصدر التفسير عرض اتجاهين لتعريف التفسير وتحديد دلالته.

الاتجاه الأول: وهو الاتجاه السائد عند الاصوليين الذي لخصه بقوله ﷺ: (... وبتعبير آخر أن من أظهر معنى اللفظ يكون قد فسّره، وأما حيث يكون المعنى ظاهراً ومتبادراً بطبيعته، فلا اظهار ولا تفسير.

وسيراً مع هذا الاتجاه، لا يكون من التفسير إلّا اظهار أحد محتملات اللفظ، وإثبات أنه هو المعنى المراد، أو اظهار المعنى الخفي غير المتبادر، واثبات أنه هو المعنى المراد، بدلاً من المعنى الظاهر المتبادر. وأما ذكر المعنى الظاهر المتبادر من اللفظ، فلا يكون تفسيراً.

وهذا الرأي يمثل الرأي السائد عند الاصوليين)(٢).

أما الرأي الثاني فهو الرأي الذي تبناه هو ﷺ بقوله: (ولكن الصحيح: هو أن ذكر المعنى الظاهر قد يكون في بعض الحالات تفسيراً أيضاً، واظهاراً لأمر خفي، كما أنه في بعض الحالات الأخرى

---

(١) علوم القرآن، السيد محمد باقر الحكيم: ص٦٦.

(٢) علوم القرآن، السيد محمد باقر الحكيم: ص٦٦ ـ ٦٧.

لا يكون تفسيراً ؛ لأنه يفقد عنصر الخفاء والغموض ، فلا يكون اظهاراً لأمر خفي أو إزالة لغموض)[1] .

وعند دراسة وتحليل الرأيين الذين عرضهما الشهيد الصدر ـ رأيه والرأي الآخر ـ نجد أنهما متفقان في مفهوم التفسير ، ومختلفان في تحديد مصاديقه ، فالتفسير عندهما هو كشف الغموض ، وإزالة الخفاء عن المعنى المراد للمتكلم .

أما اعتبار المتبادر من ظهور المعنى ـ إذا كان من الدرجة المعقدة كما عبر الشهيد الصدر ـ من الغامض الخفي الذي يجب أن يكشف عنه أو لا ، فهو تشخيص مصداق ، وليس تحديد مفهوم .

وبذا يتضح اتجاهان في معنى التفسير :

أولهما : يحصر التفسير في اظهار أحد محتملات اللفظ ، وإثبات أنه المعنى المراد ، وبذا يكون من حقّق ذلك قد فسّر القول .

أو أن يكون المفسر قد أظهر المعنى الخفي في الكلام غير المتبادر منه ، وأثبت أن المراد ليس المتبادر ، بل غيره .

وهو الاتجاه السائد لدى الاصوليين ، كما يقول الشهيد الصدر .

والاتجاه الثاني : يرى أن التفسير يصدق أيضاً ببيان المعنى الظاهر إذا كان في ذلك العمل اظهار لأمر خفي في الكلام .

وبعد هذا العرض لمفهوم التفسير ، وتعريفه في اللغة والاصطلاح

---

(١) علوم القرآن ، السيد محمد باقر الحكيم : ص٦٧ .

يتضح لنا معنى التفسير وأهميته في الفكر الاسلامي، فهو عبارة عن بيان المحتوى القرآني الذي يحتاج الى بيان، وكشف المراد منه، سواء أكان ذلك بيان معنى لمفردة لفظية أو جملة.

وبيان المحتوى القرآني (ومراد الله تعالى من كتابه). مسألة من أهم المسائل، وأكثرها أثراً في حياة الأمة الاسلاميّة.

تحدث الوحي عن مسألة البيان القرآني بقوله: **﴿إنَّ علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إنَّ علينا بيانه﴾** [1] وبقوله: **﴿... وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزّل إليهم ولعلَّهم يتفكَّرون﴾** [2].

وهكذا يوضِّح القرآن أن بيان ما كان غامضاً من القرآن، لا يتضح إلّا ببيان الرسول ﷺ وهو من مهامه ﷺ، وأن الله سبحانه قد بيَّنه له، وكشف غوامضه.

قال الشيخ الطوسي في تفسيره لقوله تعالى: **﴿ثم إنَّ علينا بيانه﴾**: (والبيان إظهار المعنى للنفس بما يتميز به من غيره بأن الشيء يبين إذا ظهر، وأبانه غيره، أي أظهره بياناً وإبانة. ونقيض البيان الإخفاء والإغماض. وقال قتادة: ثم إن علينا بيانه، معناه: إنّا نبين لك معناه إذا حفظته) [3].

---

(١) سورة القيامة، الآية ١٧ـ١٩.

(٢) سورة النحل، الآية ٤٤.

(٣) التبيان: ١٠ / ١٩٦ـ١٩٧ ـ دار احياء التراث العربي ـ بيروت.

وفسّر العلامة الطباطبائي هذه الآية بقوله : (أي علينا ايضاحه عليك بعد ما كان علينا جمعه وقرآنه ، فثم للتأخير الرتبي ، لأن البيان مترتب على الجمع والقراءة رتبة .

وقيل : المعنى : ثم إن علينا بيانه للناس بلسانك تحفظه في ذهنك عن التغيير والزوال حتى تقرأه على الناس)[1].

من يفسّر القرآن:

إنّ الحديث عن منهج التفسير في مدرسة أهل البيت ، والأدوات والوسائل التي توصل الى معرفة القرآن ، والكشف عن معانيه ، وبيان مراد الله تعالى منه . يقودنا إلى ضرورة بيان مسألة أساسية من المسائل التي يرتبط بها فهم القرآن ، واكتشاف محتواه الفكري والتشريعي والتربوي . . . الخ . وهي مسألة : (من المُخوَّل بفهم القرآن وتفسيره) . فقد نشأت في هذا الشأن عدة نظريات أساسية أثارت جدلاً وخلافاً بين العلماء وهي :

١ ـ النظرية التي تذهب الى أن القرآن لا يفسره إلّا الرسول ﷺ باعتباره المخاطب به ، وهو وحده يدرك ما فيه من معانٍ ومضامين ، وهو مذهب الحشوية والمجبّرة ، كما ذكر الشيخ الطوسي ذلك .

٢ ـ النظرية القائلة أن القرآن لا يفسره إلّا الرسول ﷺ والأئمة من أهل البيت عليهم السلام باعتبارهم الحجة على الخلق بعد رسول الله ﷺ ،

---

(١) الميزان : ٢٠ / ١١٠ / ط ٢ .

ووفـق هـاتين النـظريتين يـتوقف دور العـقل والاجـتهاد فـي فـهم القرآن .

٣ـ النظرية التي تذهب الى أن القرآن خطاب عربي مبين ، وأن كل من عرف لغة العرب يستطيع أن يفهم القرآن .

٤ ـ النظرية التي تذهب الى أن القرآن خطاب إلهي موجه الى البشرية جميعها ، بلغة عربية فصيحة ، وبالاعتماد على العنصر اللغوي وأدوات علمية اخرى نستطيع أن نفهم القرآن وفق ظهوره اللغوي ، كما نستطيع أن نستنبط الكثير من معانيه عن طريق العقل والتدبر ، غير أن هناك بعض المعاني والمفاهيم التي يحتاج الناس في بيانها الى الرسول ﷺ أو الإمام الذي ورث علوم الرسول ﷺ فلابد فيها من الرجوع إليه ؛ فهو المرجع من بعده وأن بيانه هو الحجة عند الخلاف في فهم القرآن ، وبـذا يكـون فـهم القـرآن والاستنباط مـنه عـملاً عـلمياً جـائزاً لغير النبي ﷺ والإمام عليه السلام إذا كان قد توفرت لديه الوسائل العلمية التي تؤهله لفهم القرآن ، وهذه النظرية هـي النـظرية العـلمية السـائدة لدى مفسري وفقهاء الشيعة الإمامية ، وفي ذلك تحدث الشيخ الطوسي مبيناً بطلان النظريات الأولى والثانية والثالثة ، وإثبات النظرية الرابعة ، وقـد صرح بذلك عند تفسيره الآية الكريمة : **﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾** (١) .

---

(١) سورة النساء ، الآية ٨٢.

قال : هذه الآية الكريمة تدل على أشياء :

أحدها : على بطلان التقليد ، وصحة الاستدلال في أصول الدين : لأنه حث ودعاء الى التدبر ، وذلك لا يكون إلّا بالفكر والنظر .

الثاني : يدل على فساد مذهب من زعم أن القرآن لايفهم معناه إلّا بتفسير الرسول ﷺ من الحشوية والمجبّرة ؛ لأنه تعالى حثَّ على تدبره ليعملوا به[1] .

وعند تفسيره لقوله تعالى : ﴿**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾[2] قال : معناه : (أفلا يتدبرون القرآن بأن يتفكروا فيه ، ويعتبروا به ، أم على قلوبهم قفل يمنعهم من ذلك ، تنبيهاً لهم على أن الأمر بخلافه ، وليس عليها ما يمنع من التدبر والتفكر ، والتدبر : النظر في موجب الأمر وعاقبته . وعلى ذلك دعاهم الى تدبر القرآن .

وفي ذلك حجة على بطلان قول من يقول : لا يجوز تفسير شيء من ظاهر القرآن إلّا بخبر وسمع)[3] .

هذه الآية تدل على أشياء وذكر منها : أنّها تدل على فساد مذهب من زعم أن القرآن لايفهم معناه إلّا بتفسير الرسول من الحشوية والمجبّرة ؛ لأنه تعالى حثَّ على تدبره ليعملوا به .

---

(١) التبيان في تفسير القرآن : ٣/٢٧٠ . دار احياء التراث العربي .

(٢) سورة محمد ، الآية ٢٤ .

(٣) التبيان في تفسير القرآن : ٩/٣٠٣ ، دار احياء التراث العربي .

وتحدث الفقيه الشهيد السيد محمد باقر الصدر ﵀ في هذه النظريات في أحد كتبه الاصولية المدرسية فقال: (ذهب جماعة من العلماء الى استثناء ظواهر الكتاب الكريم من الحجية، وقالوا: بأنه لا يجوز العمل فيما يتعلق بالقرآن العزيز إلّا بما كان نصاً في المعنى، أو مفسراً تفسيراً محدداً من قبل النبي ﷺ أو المعصومين من آله عليهم الصلاة والسلام)[1].

وبعد أن عرَّف بهذه النظرية ردَّ عليها استدلالها، وناقش أدلتها التي استدلت بها من الكتاب والروايات التي احتجت بها.

فمن القرآن استدلوا بقوله تعالى: ﴿**هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات**﴾ ويمكن تلخيص ردّ الشهيد الصدر[2] على هذا الاتجاه بالآتي:

١ - رده على ما استدل به من القرآن الكريم ويبتنى على:

أ - إنّ اللفظ الظاهر ليس من المتشابه.

ب - لو سلمنا بأن الظاهر من المتشابه فلا نسلّم أن الآية تنهى عن مجرد العمل بالمتشابه، وإنما هي في سياق ذم من يلتقط المتشابهات فيركز عليها بصورة منفصلة عن المحكمات ابتغاء الفتنة، وهذا مما لا شك في عدم جوازه.

---

(١) دروس في علم الاصول: المجلد الأوّل، الحلقة الثانية، الدليل الشرعي ص٢١٦. - ٣ - ظواهر الكتاب الكريم، دار الكتاب اللبناني - بيروت (ط سنة ١٩٧٨).

(٢) المصدر السابق.

ج ـ يلزم من قال بعدم حجية الظهور بطلان احتجاجه بـهذه الآيـة ، لأنه احتجاج بظهورها .

٢ ـ ردّه[١] على ما استدل به من الروايات الناهية عن العمل بـظاهر الكتاب ، ويُلخص ردّه بالآتي :

أ ـ ضعف هـذه الروايـات ، وأن رواتـها فـي الغـالب مـن أصـحاب الاتجاهات الباطنية المنحرفة .

ب ـ انّ هذه الروايات معارضة للكتاب الكريم الدّال على أنه تـبيان لكل شيء وهدىً وبلاغ ، والمخالف من أخبار الآحاد للكتاب لا يشمله دليل حجيّة خبر الواحد .

ج ـ ما دلّ من الروايات على وجـوب التـمسك بـالقرآن ، ذلك لأن التمسك به يعني عرفاً العمل بظواهره .

ونـخلص مـن دراسـة آراء اولئك الاعـلام أن المـنهج الامـامي فـي التفسير يثبّت مبدأ أن القـرآن يـمكن أن يُـفسَّره غـير النـبي أو الامـام ، يفسر ما لم يرد فيه بيان مـن النـبي صلى الله عليه وآله وسلم أو الامـام عليه السلام مـن بـعده ، وأن المأثـور الثـابت الصّـحة هـو المـرجـع والمـقياس فـي التـفسير والتأويل .

ولعل في ذلك الرد الكافي على الاتجاه الباطني الخارج على مـنهج أهل البيت عليهم السلام كما أن في ذلك الرد الكافي على من خـلط بـين منهج

---

(١) المصدر السابق .

مدرسة أهل البيت في التفسير ، وبين المنهج الباطني ، ولعل من أوضح صور الخلط والتشويه ، وسوء الفهم المؤسف ، هو ما جاء في كتاب (دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث) للدكتور عبد الله فهد النفيسي . قال :

(إن نظرة الشيعة الى مصادر الشريعة الاسلامية تختلف اختلافاً كليّاً عن نظرة السنة اليها ، فالسنة تعتبر المصدر الأول للشرع القرآن الكريم ، ثم الحديث الشريف (السنة) والاجماع والقياس ، ولكن الشيعة ، في صورة عامة يتطلعون الى إمام بالتعيين من قبل الله بواسطة رسوله يستطيع وحده تفسير القرآن ، ويدرك معناه الباطني . وبسبب هذا الخلاف الجوهري في النظرة الى الاسلام ، فإنّ الشيعة تنظر الى قضية خلاص الانسان من زاوية تختلف عن نظرة السنة . فإن الخلاص البشري في نظر الشيعة ، لا يتم كما ترى السنة بواسطة اتباع أحكام القرآن ، أي أن تكون حياة المسلم منسجمة مع أوامر الله ونواهيه ، كما نصّها الوحي . وإنّما بواسطة إمام الزمان . . .)[1] .

وقد أكد أئمة أهل البيت عليهم السلام في مواضع عديدة ، وعلى امتداد وجودهم أنهم ورثة علوم رسول الله ، ورواة معارفه ، فمنها يأخذون ، وعليها يؤسسون ، وأن كل ما صدر عنهم ، هو مأخوذ عمّا وصلهم أباً عن أب عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

---

(١) دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث : ص ٢٥ ـ ٢٦ .

وفي ذلك يقول الإمام الصادق عليه السلام : « حديثي حديث أبي ، وحديث أبي حديث جدي ، وحديث جدي حديث أبيه ، وحديث أبيه حديث علي بن أبي طالب ، وحديث علي حديث رسول الله ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قول الله عزوجل »[1].

وسأل رجل الإمام الصادق عليه السلام فقال : (أرأيت إن كان كذا وكذا ما يكون القول فيها ؟ فقال له : مه ما أجبتك فيه من شيء ، فهو عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم)[2].

وسأله أحد أصحابه قال : (بأي شيء يفتي الإمام ؟ قال : بالكتاب والسُّنة ؟ قلت : فما لم يكن في الكتاب ؟ قال : بالسنة ، قلت : فما لم يكن في الكتاب والسنة ؛ قال : ليس شيء إلّا في الكتاب والسنة . قال : فكرّرت مرتين أو اثنتين ، قال : يُسدد ويُوفَّق ، فامّا ما تظن فلا)[3].

وقد علّق العلّامة المجلسي على ذلك بقوله : (يوفّق ويسدد ؛ أي لأن يعلم ذلك من الكتاب والسنة) .

وعن جابر قال : قال أبو جعفر الباقر عليه السلام «ياجابر لو كنا نفتي الناس برأينا لكنا من الهالكين ، ولكنا نفتيهم بآثار من رسول الله وأصول علم عندنا يتوارثها كابر عن كابر ، نكنزها ، كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضتهم »[4].

---

(١) بحار الأنوار ، المجلسي : ٢/١٧٨ ، كتاب العلم .
(٢) الاصول من الكافي ، الكليني : ١/١١٢ .
(٣) المجلسي ، بحار الأنوار : ٢/١٧٦ .
(٤) بحار الأنوار ، المجلسي : ٢/١٧٣ .

وتحدث الامام الحسن عليه السلام عن تفسير أهل البيت عليهم السلام للقرآن فقال : نحن حزب الله الغالبون ، وعترة رسول الله صلى الله عليه وآله الأقربون ، وأهل بيته الطيبون الطاهرون ، وأحد الثقلين اللذين خلّفهما رسول الله صلى الله عليه وآله في أمته ، تالي كتاب الله الذي فيه تفصيل كل شيء ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، فالمعوّل علينا تفسيره ، لا نتظنّن تأويله ، بل نتيقن حقائقه . . . »[1] .

وبضم الأحاديث بعضها الى بعض ، ودراستها دراسة تحليلية يتضح لنا أن الامام حين يفتي الناس بكتاب الله عزوجل ، ويُبيِّن محتواه إنما يعتمد على آثار علم من رسول الله صلى الله عليه وآله وأن لا شيء إلّا وقد نزّله الله في كتابه ، وبيَّنه لنبيه ، وأن أئمة أهل البيت قد ورثوا هذا البيان عن جدهم الهادي محمد صلى الله عليه وآله فبيَّنوه للناس ، كما أن قوله عليه السلام « يوفق ويُسدَّد » يوضح أن الامام بما يحمل من طهارة النفس ، وكمال العلم ، والتعلُّق المطلق بالله تعالى ، يُوفَّق ويُسدَّد لمعرفة ما هو غامض على غيره من كتاب الله عزوجل ؛ لذا كانوا هم المرجع في فهم القرآن وتفسيره عند الخلاف .

وقد اعترف علماء الاسلام بمختلف مذاهبهم بأعلميّة أئمة أهل البيت عليهم السلام ومرجعيتهم العلميّة .

---

(١) تأريخ التواريخ : خطبة الحسن بعد البيعة .

ومن الثابت تاريخياً ؛ أن الصحابة جميعاً كانوا يرون أن الإمام علياً عليه السلام هو أعلمهم ، ومرجعهم في الأحكام والمعارف الإسلامية ، وبيان ما لم يكن جليّاً مشخصاً منها بعد أن شخّص لهم الرسول صلى الله عليه وآله هذه الحقيقة بقوله : «أقضاكم علي»[1]. و «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها»[2].

قال ابن عطية : (أما صدر المفسرين والمؤيّد فيهم فعلي بن أبي طالب ، ويتلوه عبد الله بن عباس ، وهو تجرّد للأمر وكمله .

وقال ابن عباس : ما أخذتُ من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب)[3].

وقد وصفت زوج الرسول صلى الله عليه وآله عائشة علياً عليه السلام بقولها : (أما إنه أعلم الناس بالسنّة)[4].

ونقل المفسرون عن عليّ عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله دعا له ربّه بأن تكون أُذنه هي الأُذن الواعية لأحكام الشريعة ، وأصول الاسلام ، عند نزول قوله تعالى : ﴿**وتعيها أُذنٌ واعيةٌ**﴾[5] ، فقد قال : قال (لي)

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر (المطبوع ضمن الاصابة) ٣٨/٣ ، الجراحي ، كشف الخفاء : ١٦٢/١ ح ٤٨٩ .

(٢) المستدرك للحاكم : ١٣٧/٣ ح ٤٦٣٧ . الحموني ، فرائد السمطين : ٩٨/١ ح ٦٧ .

(٣) تفسير القرطبي : ٢٧/١ .

(٤) ذخائر العقبى : ص ٧٨ . الحموئي ، فرائد السمطين : ٣٦٨/١ ، ح ٢٩٧ .

(٥) سورة الحاقة ، الآية ١٢ .

النبي ﷺ : «سألت ربّي أن يجعلها أُذنك ياعلي»[1]، فقال علي عليه السلام : «فما سمعت شيئاً من رسول الله ﷺ فنسيته»[2].

وإن أكثرها وضوحاً والزاماً ، هو قول الهادي محمد ﷺ : «إني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدي : الثقلين ، أحدهما أكبر من الآخر : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، ألا إنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[3]، فانّ هذا الحديث يؤكد التلازم بين أهل البيت عليهم السلام وبين كتاب الله فهم لايفترقون عنه في العلم والعمل ، وبذا وجب أن يكونوا المرجع والمصدر في معرفة الشريعة ، ورفع الاختلاف .

---

(١) أبونعيم الاصفهاني ، حلية الأولياء : ٦٧/١ . الحموئي ، فرائد السمطين : ١٩٨/١ ح ١٥٥ .

(٢) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره للآية ورواه الزمخشري في الكشاف في تفسيره للآية والسيوطي في الدر المنثور .

(٣) مسند أحمد بن حنبل : ٤٦٢/٣ رقم الحديث : ١١٦٧ .

المرجع في التفسير

من المجمع عليه بين المسلمين جميعاً أن النبي ﷺ هو العالم بما في القرآن ، وهو المرجع والمفسّر والمبيّن لما حوى من عقيدة وفكر وأحكام وتوجيه وهداية وعلوم ومعارف مختلفة ، فالرسول ﷺ هو المخاطب بالوحي ، وهو العالم بمراد الله تعالى من كتابه العزيز ، ومع بداهة هذا ووضوحه ، ثبّت القرآن مرجعية الرسول ﷺ وأمر بالرجوع إليه ، من ذلك قوله تعالى : **﴿فإن تنازعتم في شيء فردّوه الى الله والرسول﴾** وقال تعالى : **﴿ولو ردّوه الى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾** وقال تعالى : **﴿وما أرسلنا من رسول إلّا بلسان قومه ليبيّن لهم﴾** وقال تعالى : **﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نزّل اليهم﴾ ﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلّا لتبيّن لهم الذي اختلفوا فيه﴾** .

وهكذا يتضح أنّ الرسول ﷺ مبلّغ ومبيّن للقرآن ، مبيّن بقوله وفعله وتقريره . وقد درس العلماء البيان النبوي دراسة علمية مستفيضة في علم أصول الفقه في مباحث علاقة السنّة بالكتاب .

ويقسم البيان النبوي للقرآن الكريم الى قسمين :

١ - *بيان المعنى:* فقد فسّر رسول الله ﷺ معنى القرآن وإيضاح ما قد أشكل فهمه على ذلك الجيل الذي كان يتحدث بلغة القرآن ، ويفهم ألفاظه وخطابه اللغوي .

٢ - *بيان الجانب التطبيقي والمصداقي:* وكما وضّح رسول الله ﷺ معاني القرآن ومقاصده العامة ، عند عدم وضوحها ، قام بتطبيق أحكامه وتشريعاته في العبادات والقوانين والأنظمة الاجتماعية ، كأحكام الصلاة والحج والزكاة والميراث . فعرف المسلمون المقصود التطبيقي ومصداق الآيات .

فالسنّة هي التي بيّنت لنا ، تطبيقياً ، كيفية التيمم الذي ورد في قوله تعالى : **﴿فإن لم تجدوا ماءً فتيمّموا صعيداً طيّباً﴾** وهي التي بيّنت لنا تفصيلات أحكام الزكاة بنسبها وأعيانها الزكوية . . . الخ .

فقد جاء تشريع الزكاة مجملاً في قوله تعالى : **﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها . . . ﴾** .

والرسول ﷺ هو الذي بيّن للأمة ما المقصود بقوله تعالى : **﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾** .

فقد روى المفسرون عن أم سلمة زوج الرسول ﷺ : (أن الرسول ﷺ كان في بيتها على منامة له ، وعليه كساء خيبري ، فجاءت فاطمة ببرمة فيها خزيرة ، فقال رسول الله ﷺ : ادعي زوجك وابنيك حسناً وحسيناً فدعتهم ، فبينما هم يأكلون إذ نزلت على

رسول الله ﷺ : **﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾** فأخذ النبي ﷺ بفضلة إزاره فغشاهم إياه ، ثم أخرج يده من الكساء ، وأومأ بها الى السماء ثم قال : اللهمّ هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا ـ قالها ثلاث مرات ـ ، قالت أم سلمة : فأدخلت رأسي في الستر فقلت : يارسول الله ﷺ وأنا معكم ؟ فقال : إنك إلى خير ، مرّتين . . .)[1] .

وبعد مرحلة النبوة والوحي جاءت مرحلة الصحابة فكانت لهم تفاسير وآراء فيما لم يرد فيه بيان نبوي واضح ، وكان من أبرز من كان لهم بيان وتفسير ، هم : الإمام علي عليه السلام ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وغيرهم . ثم جاء من بعدهم من التابعين فكانت لهم آراء وتفسيرات .

ومن الواضح أن هذه التفسيرات كانت تختلف وتتباين أحياناً ، فما هو المرّجح لتفسير على آخر ؟ ومن هو المرجع في التفسير عند الاختلاف إذن ؟

وتلك مسألة علمية وعقيدية ترتّب عليها بناء وامتداد فكري واسع في الأمة ، بل وساهم الجواب على هذين السؤالين في بُنية وتكوين المذاهب الفكرية والفقهية والاتجاهات السياسية لدى المسلمين .

---

(١) روي الحديث في غاية المرام عن عبد الله بن أحمد بن حنبل بثلاث طرق عن أم سلمة وكذا عن تفسير الثعلبي وكثير غيرهما .

ويمكننا أن نلخص هذه الاتجاهات في اتجاهين أساسيين هما :

١ ـ اتجاه يساوي في القيمة العلمية بين ما صدر عن الصحابة جميعاً ثم التابعين من تفسير وبيان قرآني .

٢ ـ اتجاه يؤمن بأن الامام علياً عليه السلام ومن بعده الأئمة من ذريته هم المرجع عند الاختلاف في فهم القرآن وتفسيره وهم أتباع أهل البيت عليهم السلام (أي شيعتهم) ، وأن ما صدر عنهم من تفسير وبيان قرآني هو الحجة على الآخرين ، وهو الرافع للاختلاف ، واستدلوا على ذلك بآيات وروايات عديدة كقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : «إني أوشك أن أُدعى فأجيب ، وإني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله ـ عزوجل ـ وعترتي ، كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ، وأن اللطيف الخبير أخبرني أنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض ، فانظروا بم تخلفوني فيهما»[1] .

وكقوله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام : «إنّ الله أمرني أن أدنيك ولا أقصيك ، وأن أعلمك وتعي ، وحق على الله تعالى أن تعي ، فنزلت : ﴿ وتعيها أذن واعية ﴾»[2] .

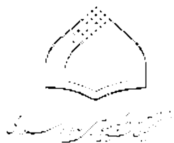
---

(١) سنن الترمذي : ٥/٦٢٢ / ٣٧٨٨ مناقب أهل البيت عليهم السلام . والحاكم في مستدرك الصحيحين : ٣/١٠٩ . وأحمد بن حنبل في مسنده : ٣/١٧ . والطبراني في المعجم الكبير : ٥/ح ٤٩٢١ـ٤٩٢٣ ، ٤٩٨٠ـ٤٩٨٢ ، ٥٠٢٥ـ٥٠٢٨ ، ٥٠٤٠ .

(٢) الواحدي ، أسباب النزول : سورة الحاقّة .

وروى ابن عباس : أن رسول الله ﷺ دعا لعلي ؑ بقوله : «اللـهم فقهه في الدين ، وعلّمه التأويل»[1] .

وروى أبو بكر بن عياش محمد نصير بن سـليمان الأحـمسي عـن أبيه عن علي قال : «والله ما نزلت آية إلّا وقد علمت فيم نزلت ، وأيـن نزلت . إن ربي وهب لي قلباً عقولاً ، ولساناً سؤولاً»[2] .



(١) ابن الأثير ، النهاية : ج ١ ص ٨٠ .

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم الاصفهاني : ج ١ ص ٦٧ ـ ٦٨ .

اللغة والتفسير

قال الله تعالى : ﴿**وما أرسلنا من رسولٍ إلّا بلسان قومه ليبيّن لهم**﴾[1] .

﴿**لسان الذي يلحدون إليه أعجميّ وهذا لسان عربيّ مبين**﴾ [2] .

﴿**فإنّما يسّرناه بلسانك لتبشّر به المتّقين وتُنذر به قوماً لدّاً**﴾ [3].

إنّ المعجزة الكبرى التي تحدّت العرب ، رغم مالديهم من بلاغة وفصاحة وتفوّق أدبي ، هي القرآن الكريم ، والقرآن هو الخطاب الإلهي الذي نزل على قلب النبي الأمين محمد ﷺ بلسان العرب ولغتهم؛ لتفهيم المخاطبين ، وتيسير فهمه لهم .

قال تعالى موضّحاً هذه الخصيصة : ﴿**ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر**﴾ وبذا صار القرآن حجة على العرب المخاطبين به؛ لوضوح خطابه لديهم ، فإن تعذّر بيان شيء لم يألفوه من المعاني والمسميات ، بيّنه الرسول ﷺ لهم بأتمّ بيان .

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية ٤ .

(٢) سورة النحل ، الآية ١٠٣ .

(٣) سورة مريم ، الآية ٩٧ .

والتفسير كما عرفنا، هو بيان مراد الله تعالى من كتابه، وهذا المراد معبّر عنه بلغة عربية فصحى، لذا فإنّ من عرف العربية بمستوى معرفتها في عصر الوحي، يستطيع أن يفهم القرآن إلّا ما كان فهمه يحتاج الى بيان من خارج حدود اللغة.

وتأسيساً على ذلك اعتبر علماء أصول الفقه الإمامية الظاهر القرآني حجّة، وثبّتوا قاعدة علمية لفهم القرآن وتفسيره، واكتشاف الاحكام والمفاهيم بعنوان: (حجيّة الظهور).

فليس القرآن رموزاً باطنية، ولا إشارات معقّدة، كما ذهب الباطنيون الى ذلك، إذ ردّ عليهم الفقهاء هذا المذهب، وقالوا بحجيّة الظاهر القرآني، واستدلّوا لحجيّة الظاهر القرآني -أي ما يفهم من ظاهر اللفظ والسياق القرآني- وفق أصوله العربية أنه حجّة بأدلّة كثيرة موضحة في مواردها من علم أصول الفقه.

وفي دراسة اللغة وأثرها في التفسير تبرز أمامنا عدة موضوعات هي:

١ـ الترادف.

٢ـ الاشتراك.

٣ـ الإعراب وموقع الكلمة المفردة والجملة من الكلام.

٤ـ فهم معنى المفردة القرآنية.

٥ـ القراءة.

٦ـ الحقيقة والمجاز.

ولنتناول تلك الموضوعات بشيء من التفصيل ليتّضح لنا كيف تعاملت مدرسة أهل البيت مع المعنى القرآني من خلال اللغة، وكيف وظفت تلك الأداة في اكتشاف المعنى وفهمه.

١ ـ الترادف:

من الواضح أنّ المفردات اللغوية هي وحدات البناء اللغوي، وأنّ للألفاظ دلالات وضعية على المعاني المراد التعريف بها، وأنّ من الظواهر المألوفة في لغة العرب ظاهرة الاشتراك في المعنى، وهو ما يسمى اصطلاحاً بـ(الاشتراك) أي استعمال اللفظ في أكثر من معنى. كما نجد في اللغة العربية استعمال لفظين لمعنى واحد ويسمّى (بالترادف)، كالغيم والسحاب، والعقل والنُّهىٰ، والريب والشك، والبارئ والخالق. والاعتماد على المرادف اللغوي هو منهج أساسي من المناهج المتّبعة في تفسير مفردات القرآن الغريبة،

ومن الأمثلة العملية على وجود الترادف، وتفسيره بالمرادف، هو تفسير أبق بـ(هرب)، وتفسير تفثهم بـ(وسخهم)، وتفسير أُجاج بـ(شديد الملوحة)، وتفسير لاريب فيه بـ(لاشكَّ فيه).

وهكذا فسّرت ألفاظ القرآن المفردة ذات الدلالة الغريبة على القارئ والسامع بمفردة لغوية اخرى مألوفة المعنى عنده. ولهذا الغرض أُلِّفت تفاسير: (مفردات غريب ألفاظ القرآن) لبيان معانيها ودلالاتها، كمفردات الراغب الاصفهاني، وغريب القرآن للسجستاني، وغريب القرآن لأبي عبيدة، وغريب القرآن لابن قتيبة وغيرها كثير.

وفي الحديث عن تفسير المفردة القرآنية بمفردة أخرى مرادفة لها ينبغي دراسة وتحليل محتوى اللفظ ، وتحديد معناه الذي حمّله الواضع إياها . وبالتحديد ينبغي أن تدرس هذه الألفاظ المترادفة ، هل هي متكافئة في معناها بشكل كامل كما تتكافأ قطع النقود من فئة واحدة ؟ أو كما تتكافأ قطع الغيار المتعددة في أداء العمل في الماكنة الواحدة ، بحيث يتحقق تمام الغرض القرآني عند استعمال أي من المفردات أو لا ؟

لكي يتّضح لنا ذلك فلنصغ الى الراغب الاصفهاني أحد أعلام مفسري مفردات القرآن ، ومن أوائل المؤلفين فيه ، ليحدثنا عن تفسير المفردة القرآنية بمفردة أخرى مرادفة لها . قال ﷺ في مقدمة كتابه (المفردات في غريب القرآن) :

« وأتبع هذا الكتاب إن شاء الله تعالى ونَسأ في الأجلِ ، بكتاب يُنبئ عن تحقيق الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد ، وما بينها من الفروق الغامضة ، فبذلك يُعرف اختصاص كلٍّ خبر بلفظ من الألفاظ المترادفة دون غيره من أخواته ، نحو ذكره القلب مرَّةً ، والفؤاد مرة والصدر مرَّة . ونحو ذكره تعالى في عقب قصة : ﴿**إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يؤمنون**﴾ وفي أُخرى : ﴿**لقومٍ يتفكرون**﴾ وفي أُخرى : ﴿**لقومٍ يعلمون**﴾ وفي أخرى : ﴿**لقومٍ يفقَهون**﴾ وفي أخرى : ﴿**لأُولي الأبصار**﴾ وفي أُخرى : ﴿**لِذي حِجر**﴾ وفي أخرى : ﴿**لأُولي النُّهى**﴾ ونحو ذلك مما يعدُّه من لا يحقُّ الحقَّ ويُبطلُ الباطل ، أنه بابٌ واحدٌ ، فَيُقدِّرُ أنه إذا فسَّرَ الحمد لله ، بقوله الشكرُ لله ، ولا ريب فيه ، بلا شك فيه فقد فسَّر القرآن ،

ووفَاه التبيان ، جعل الله لنا التَّوفيق رائداً ، والتقوى سائقاً ، ونفعنا بما أولانا ، وجعله لنا من معاون تحصيل الزاد المأمور به في قوله تعالى : ﴿وتزودوا فإنّ خير الزّاد التقوى﴾ » .

وبذا يوضّح الراغب أحد أئمة التفسير اللغوي أنّ المترادفات في اللغة غير متساوية في المعنى تمام التساوي ، وأنّ هناك فارقاً في المعنى بين مرادف ومرادف آخر زائداً على مرادفه ، فالمترادفان بينهما اشتراك في المعنى إضافة إلى معنى إضافي ، غير أن المرادف يقوم بدور الوسيط في إيضاح مرادفه ، وليس هو المؤدي تمام المعنى والأداء المساوي من غير فرق بينهما ، ولقد طبّق الراغب هذه النظرية تطبيقاً عملياً على عمله التفسيري في كتابه : (المفردات في غريب القرآن) فلم يكتف بايراد المرادف كمفسّر ، بل أورده مع الفارق الإضافي من معنى مستبطن في اللفظ المستعمل قرآنياً ، نعرِّف بعضاً منها لايضاح هذه النظرية في التفسير اللغوي ، فمثلاً فسّر كلمة (الريب) بقوله : (الريب أن تتوهَم أمراً ما فينكشف عما تتوهمه) وفسّر كلمة (الشك) بقوله : (الشك : اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويهما) وبذا يتّضح الفارق بين الشك والريب في المعنى ، في حين لم يفرّق كثير من المفسرين بينهما ، كما لم يفرّق كثير من أصحاب القواميس بينهما .

وفسّر (الأمّة) بقوله : (كل جماعة يجمعهم أمر ما ، إمّا دين واحد ، أو زمان واحد ، أو مكان واحد) . ولذا فكلمة أمة لا تُفسر بكلمة جماعة مجرّدة من إضافة الأمر الجامع .

وهكذا فإنّ كلمة (جماعة) لا تساوي كلمة (أمّة) ، بشكل كامل .

وفي تفسيره (للخشوع) (بالضراعة) ، وضح الفارق في المعنى بين المترادفين بقوله : (الخشوع : الضراعة ، وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح ، والضراعة أكثر ما تستعمل في ما يوجد في القلب ، ولذلك قيل فيما روي : إذا ضرع القلب خشعت الجوارح ، وفسّر (السغب) بقوله : (هو الجوع مع التعب ، وقد قيل في العطش مع التعب) .

بينما فُسّر السغب في قواميس اللغة بالجوع مجرّداً من حالة التعب . وهكذا فتفسير السغب بالجوع مجرداً ، لا يؤدي الغرض القرآني من استعمال كلمة السغب ، ولم يستعمل كلمة جوع ، لأنها لا تعبر عن تمام المراد ، وهو وصف الحالة التي تسيطر على الناس في ذلك اليوم (جوع ونصب) ، أو (جوع يخالطه عطش وتعب) أو كل هذه الحالات .

وفسّر الاشفاق مفرّقاً بينه وبين مرادفه ،الخوف ، بقوله : (والاشفاق عناية مختلطة بخوف ؛ لأنّ المشفِق يحب المشفَق عليه ، ويخاف ما يلحقه .

قال : ﴿ **وهم من الساعة مشفقون** ﴾ فإذا عُدّي بمن فمعنى الخوف فيه أظهر ، وإذا عُدّي بفي فمعنى العناية فيه أظهر . قال : ﴿ **إنّا كنا قبل في أهلنا مشفقين** ﴾ .

وفسّر الهداية بقوله : (الهداية : دلالة بلطف . . . ثم قال : إن قيل

كيف جعلت الهداية دلالة بلطف ، وقد قال الله تعالى : ﴿**فاهدوهم الى صراط الجحيم**﴾ ويهديه الى عذاب السعير . قيل : ذلك استعمل فيه استعمال اللفظ على التهكّم مبالغة في المعنى ، كقوله : فبشّرهم بعذاب أليم .

وبهذا التفسير نفهم الفارق بين تفسير من يفسّر الهداية بأنها : دلالة بلطف ، وبين من يفسّرها بالدلالة كمرادف لها .

فالتفسير الأول يوضّح مراد القرآن المودع في هذه الكلمة كاملاً ؛ ليوضح للناس أنّ الله سبحانه دلّهم على الطريق بلطف ، بينما لا يوضح التفسير الثاني عنصر اللطف في الدلالة ؛ لذا فهو ليس تفسيراً تاماً لمراد القرآن الكريم من استعمال لفظ الهداية دون مرادفها .

٢ ـ الاشتراك:

وبعد أن تكونت لدينا صورة عن الترادف ، وعدم دقّة التفسير بالمرادف ،لعدم قدرة مرادفه على أداء كامل معناه، نوضح الصنف الثاني من الاشتراك ، وهو اشتراك معنيين ، أو أكثر بلفظ واحد . أي أن يكون للّفظ الواحد أكثر من معنى كلفظ (القُرء) الذي قال فيه الراغب : (والقُرء في الحقيقة اسم للدخول في الحيض عن طهر، ولما كان اسماً جامعاً للأمرين معاً : الطهر والحيض المتعقب له ، أطلق على كل واحد منهما . والقُرء إذا انفرد، كالمائدة للخوان والطعام، ثم قد يسمى كل واحد منهما بانفراده به، وليس القرء اسماً للطهر مجرداً ، ولا للحيض مجرّداً...[1].

---

(١) المفردات في غريب القرآن ، مفردة : قرء .

وكلفظ (المولى) الذي يعني العبد والسيّد ، وكلفظ (دِين) الذي يعني : العادة والشأن والجزاء والمكافأة .

وعُرِّف اللفظ المشترك بأنه : (اللفظ الذي تعدد معناه ، وقد وضع للجميع ـ كلّاً على حدة ـ ولكن من دون أن يسبق وضعه لبعضها لبعض على وضعه للآخر ، مثل (عين) الموضوع ، لحاسة النظر ، وينبوع الماء ، والذهب ، وغيرها)[١] .

وقد ذكر بعض العلماء استحالة استعمال لفظ واحد في معنيين في استعمال واحد .

وحين يرد اللفظ المشترك في القرآن الكريم ينبغي التعامل معه أنّه من المجملات ، وينحل الإجمال بالقرائن اللفظية والسياقية وغيرها من القرائن التي توضح مراد القرآن من المعنى المستعمل فيه .

قال الشيخ الطوسي في مقدمة تفسير التبيان : (ومتى كان اللفظ مشتركاً بين شيئين أو ما زاد عليهما ، ودلّ الدليل على أنّه لا يجوز أن يريد إلّا وجهاً واحداً ، جاز أن يقال إنّه هو المراد) .

وقال الشيخ محمد رضا المظفر ﷺ : « ولا شك في جواز استعمال اللفظ المشترك في أحد معانيه بمعونة القرينة المعيّنة ، وعلى تقدير عدم القرينة يكون اللفظ مجملاً ، لا دلالة له على أحد معانيه »[٢] .

لذا ينبغي للمفسّر أن يلمّ بهذه الاستعمالات ، ويشخّص القرائن

---

(١) محمد رضا المظفر ، المنطق : ١/٤٤ .

(٢) أُصول الفقه : ١/٣٢ .

المفسّرة لهذا الاستعمال المجمل ليستطيع تشخيص المراد القرآني .

٣ـ الإعراب:

من الواضح لدى المختصّين بعلم النحو أنّ الاعراب في حقيقته هو : عبارة عن بيان موقع الكلمة أو الجملة من الكلام ، وذلك يعتمد على فهم المعنى وتحديده ، وقد وضعت علامات الإعراب للفظ المفرد لتكون دنيلاً على موقعه من الكلام ، أو علامة قرائية لبيان المعنى . والقرآن ـ كما نعرف ـ هو آية في البلاغة والفصاحة والإتقان اللغوي ، لذا فإنّ تفسيره ، وفهمه لغوياً ، الذي يكشف لنا عن معناه يحتاج الى فهم إعراب الكلمة والجملة . وكما نعرف فإن المفسّر الذي عاش ، أو يعيش في بيئة غير بيئة اللغة القرآنية ـ أي يعيش في غير عصر الإحتجاج اللغوي ـ فهو ليس من أهل اللغة ، كما كان المعاصرون لنزول القرآن ، أمثال ابن عباس ، وأُبيّ وغيرهم ، إنما يتعلمها تعلّماً .

وكما نعلم فإن للنحويين مذاهب ونظريات نحوية ، كما أنّ فهم المفسّر الإعرابي يختلف من شخص لآخر ؛ لذلك نجد الإختلاف في إعراب الكلمة والجملة القرآنية لدى المفسرين والنحويين .

وينعكس هذا الإختلاف في الإعراب على الاختلاف في فهم المعنى واكتشافه ، مما يستوجب توفر القدرة اللغوية لدى المفسّر في هذا الحقل من علوم اللغة . ومساحة هذا المجال في القرآن الكريم واسعة ، وذات أثر هام .

وللإيضاح نذكر أمثلة من الخلاف في الإعراب الذي ينتج عنه خلاف في التفسير . فالذي جاء في إعراب (إلّا) الواقعة في قوله تعالى : **﴿ياأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلّا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم...﴾** [١] . . . ماياتي :

ذكر العلامة الطباطبائي أنّ بعضهم أعربها بأنها استثناء منقطع ، وأعربها آخرون بأنّها استثناء متصل ، أما هو فقد فسّرها بقوله : (فتقييد الجملة ، أعني قوله : لا تأكلوا أموالكم بينكم بعد تقييدها بقوله : بالباطل ، النهي عن المعاملات الناقلة التي لا تسوق المجتمع الى سعادته ونجاحه ، بل تضره وتجرّه الى الفساد والهلاك ، وهي المعاملات الباطلة في نظر الدين ، كالربا والقمار والبيوع الغَررية . . . وعلى هذا فالاستثناء الواقع في قوله تعالى : **﴿إلّا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم﴾** استثناء منقطع جيئ به لدفع الدخل . . .) [٢] .

ثم قال : (وربما يقال إن الاستثناء متصل، وقوله بالباطل قول توضيحي جيئ به لبيان حال المستثنى منه بعد خروج المستثنى وتعلّق النهي) [٣] .

غير أنّه رفض هذا الإعراب ثم علّق على ما أورد من آراء : (وهذا الذي ذكرناه من انقطاع الاستثناء هو الأوفق بسياق الآية . . .) [٤] .

---

(١) سورة النساء ، الآية ٢٩ .

(٢) الميزان في تفسير القرآن : ج ٤ تفسير سورة النساء ، الآية ٢٩ .

(٣) الميزان في تفسير القرآن : ج ٤ تفسير سورة النساء ، الآية ٢٩ .

(٤) الميزان في تفسير القرآن : ج ٤ تفسير سورة النساء ، الآية ٢٩ .

وهكذا ربط العلامة الطباطبائي بين التفسير والإعراب والسياق .

ولعلّ من أوضح الآثار الإعرابية في تفسير القرآن هو الاختلاف في إعراب آية الوضوء : **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلىٰ الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسِكم وأرجلكم الى الكعبين...﴾** [١] .

فقد صار الاختلاف في القراءة والإعراب سبباً للإختلاف في التفسير وبالتالي سببا للاختلاف في حكم القدمين في الوضوء ، هل هو الغسل أو المسح ؟ ويلاحظ أيضاً أنّ القراءة تؤثر بدورها في تحديد الإعراب ، فكلاهما يقوم على أساس فهم للمعنى ، كما يتضح من تفسير الطوسي لهذه الآية ، وللآية السابقة .

قال : (وقوله : أرجلكم الى الكعبين ، عطف على الرؤوس ، فمن قرأ بالجر ذهب الى أنه يجب مسحهما ، كما وجب مسح الرأس ، ومن نصبها ذهب الى أنه معطوف على موضع الرؤوس ، لأن موضعها نصب لوقوع المسح عليها ، وإنما جرّ الرؤوس لدخول الباء الموجبة للتبعيض على مابيّناه . فالقراءتان جميعاً تفيدان المسح على ما نذهب اليه .

وممن قال بالمسح ابن عباس والحسن البصري وأبو علي الجبائي ومحمد بن جرير الطبري وغيرهم ممن ذكرناهم في الخلاف . . .) [٢] .

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٦ .

(٢) التبيان في تفسير القرآن : ج ٤٥٢/٣ وما بعدها . دار إحياء التراث العربي بيروت .

٤ ـ معنى المفردة القرآنية:

ومن ضرورات التفسير هو إحاطة المفسّر بمعنى المفردات اللغوية ، فنوع الفهم للمفردة يقود الى تحديد ما يفهمه المفسّر من كتاب الله تعالى . فالمفردات اللغوية من الأسماء والحروف والافعال لها معان ودلالات ، تجب معرفتها معرفة دقيقة ، كما أن لبعضها أكثر من معنى كما ذكرنا في الاشتراك ، وفهم المعنى المراد في هذا الاستعمال يؤثر تأثيراً بالغاً في فهم العقيدة والمعارف والاحكام الشرعية .

ومن الأمثلة على ذلك هو الخلاف في تحديد معنى (ما) في قوله تعالى : **﴿إنّما نملي لهم﴾** ومعنى (اللام) في قوله تعالى : **﴿ليزدادوا إثماً﴾** في الآية الكريمة : **﴿ولا يحسبنّ الذين كفروا أنّما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾** [1] .

قال المفسّر الكبير الشيخ الطبرسي ﷺ : « و (ما) يحتمل أمرين : أحدهما : أن يكون بمعنى (الذي) فيكون تقديره : لا يحسبنّ الذين كفروا أنّ الذي نمليه لهم خير لأنفسهم ، و (الآخر) أن يكون ما نملي بمنزلة (الاملاء) فيكون مصدراً لم يقتض راجعاً إليه » .

ثم فسّر معنى (اللام) بأنه لام العاقبة وليس بلام الإرادة . وعلى فهمه لمعنى (ما) و (اللام) فسّر الآية بقوله : ثم بيّن سبحانه أن امهال الكفار لاينفعهم إذا كان يؤدي الى العقاب فقال **﴿ولا يحسبن﴾** أي

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٧٨ .

لا يظنن ﴿الذين كفروا أنّما نملي لهم خير لأنفسهم﴾ أي ان اطالتنا لأعمارهم ، وامهالنا إياهم ، خير لهم من القتل في سبيل الله بأحُد ، لأن قتل الشهداء اداهم الى الجنة ، وبقاء هؤلاء في الكفر يؤديهم الى العقاب ، ثم ابتدأ سبحانه فقال : ﴿إنما نملي لهم﴾ أي : إنما نطيل عمرهم ، ونترك المعاجلة لعقوبتهم ﴿ليزدادوا إثماً﴾ أي : لتكون عاقبة أمرهم بازديادهم الإثم فيكون اللام لام العاقبة . مثل اللام في قوله : ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ وهم إنما أخذوه ليكون لهم سروراً وقرة عين ، ولكن لما علم الله أنه يصير في آخر أمره عدوا وحزنا قال كذلك ، ومثله في قول الشاعر :

أموالنا لذوي الميراثِ نجمَعُها

ودُورنا لخرابِ الدّهرِ نبنيها

وقول الآخر :

أمّ سماكٍ فلا تجزعي

فَللموتِ ما تَلِدُ الوالِدة

وقول الآخر :

فَللموتِ تغذُو الوالداتُ سخالَها

كما لخرابِ الدّهرِ تُبنى المساكنُ

وقول الآخر : لدوا للموت وابنوا للخراب ، ولا يجوز أن يكون اللام لام الارادة والغرض لوجهين : (أحدهما) ان إرادة القبيح قبيحة .

وتلك عنه سبحانه منفية (والآخر) انـها لو كـانت لام الارادة لوجب أن يكون الكفار مطيعين لله تعالى ، من حيث فعلوا ما وافق إرادته ، وذلك خلاف الإجماع . وقد قال عزّ اسـمه : **﴿وما خلقت الجن والإنس إلّا ليعبدون﴾** **﴿وما أرسلنا من رسول إلّا ليطاع بإذن الله﴾** **﴿وما أُمروا إلّا ليعبدوا الله﴾** والقرآن يـصدّق بـعضه بـعضاً ، وعـلى هـذا فـلابد مـن تخصيص الآية فيمن علم منه أنه لا يؤمن ، لأنه لو كان فيهم من يؤمن لما توّجه إليهم هذا الوعيد المخصوص ، وقال أبو القاسم البلخي معناه ولا يحسبنّ الذين كفروا ان إملاءنا لهم رضا بأفعالهم ، وقبول لها ، بل هـو شرٌ لهم ، لأنّا نملي لهم ، وهم يزدادون إثماً يستحقون به العذاب الأليم ، ومثله : ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس ، أي : ذرأنا كثيراً مـن الخلق سيصيرون الى جهنم بسوء أفعالهم ، وقد يقول الرجـل لغيره ، وقد نصحه فلم يـقبل نـصحه : مـا زادك نـصحي إلّا شـراً و وعـظي إلّا فساداً ، ونظيره قـوله : **﴿حتى أنسوكم ذكري﴾** ومـعلوم أن الرسـل مـا أنسوهم ذكر الله على الحقيقة ، وما بُعثوا إلّا للتذكير والتنبيه دون الانساء مع ان الأُنساء ليس من فعلهم ، فلا يجوز اضـافته اليـهم ، ولكـنه إنـما أضيف إليهم ؛ لأن دعاءه إياهم لمّا كان لاينجع فيهم ، ولا يـردّهم عـن معاصيهم ، فأضيف الانساء إليهم ، وفي هذا المعنى قوله حكـاية عـن نوح : **﴿فلم يزدهم دعائي إلّا فراراً﴾** .

وروي عن أبي الحسن الأخفش والاسكافي (انّما) الأخيرة مفتوحة

الهمزة ، لأنها معمول ليحسبن على هذا القول ، وأن يكون انما الأولى مكسورة الهمزة ، لأنها مبتدأ على هذا القول ، والتقديم والتأخير لا يغيران الاعراب عن استحقاقه ، وذلك خلاف ما عليه القراءة ؛ لأن القراء قد أجمعوا على كسر الثانية ، وأكثرهم على فتح الأولى » .

ومن أمثلة تأثير فهم معنى المفردات اللغوية على فهم مراد الله تعالى من كتابه ، هو اختلاف المفسّرين في فهم المراد من حرف (إلى) في قوله تعالى : **﴿وإذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق﴾** .

فقد فسّرها بعضهم بمعنى : الغاية والانتهاء ، أي منتهى ما يطلب غسله من اليد ، وهذا يعني أن الابتداء في الغسل من رؤوس الأصابع . وفسّرها البعض الآخر بأنها تعني (مع) .

قال الطوسي ﷺ (وقوله : وأيديكم الى المرافق ، منصوب بالعطف على الوجوه الواجب غسلها .

ويجب عندنا غسل الأيدي من المرافق ، وغسل المرافق معها إلى رؤوس الأصابع ، ولا يجوز غسلها من الأصابع الى المرافق . و (إلى) في الآية بمعنى (مع) ، كقوله : (لا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم . . .) [1] .

---

(١) التبيان في تفسير القرآن : ٣/٤٥٠ .

٥ ـ القراءة:

والمقصود هنا القراءة القرآنية ، وهي مصطلح من المصطلحات المتداولة في علوم القرآن ، وقد عرّفت بأنها : (النطق بحروف القرآن كما نطق بها النبي ﷺ)[1] .

لقد نزل القرآن الكريم من ربّ العزة على النبي الأمين محمد ﷺ بلسانه الذي ينطق به ، لذا فإن نزوله كان بقراءة واحدة ، كما ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وكما يفهم من قوله تعالى : ﴿**إنّما يسّرناه بلسانك**﴾ وقال تعالى : ﴿**فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه**﴾ .

فالآية الاولى صريحة بأنّ القرآن أنزل بلسان قريش (بلهجتها) وأنه بهذه اللغة واللهجة قرئ على النبي الكريم محمد ﷺ ولم ينزل بقراءات متعددة ، فقد ورد في روايات جمع القرآن أن عثمان بن عفان قال للرهط القرشيين الثلاثة بعد أن كلّفهم بجمع القرآن : (إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القراءات فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل القرآن بلسانهم » .

وقد ورد عن أئمه أهل البيت عليهم السلام أنّ القرآن نزل بحرف واحد على النبي الكريم ﷺ ، فقد جاء عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام : (إنّ القرآن واحد ، نزل من عند واحد ، ولكن الإختلاف يجيئ من قبل الرواة)[2] .

وذهب بعض علماء المسلمين الى أن القرآن نزل على سبعة أحرف ،

---

(١) الدكتور عبد الهادي الفضلي ، القراءات القرآنية : ص٥٦ ، دار القلم ـ بيروت (ط ٣ سنة ١٤٠٥هـ) .

(٢) الكليني ، الأصول من الكافي : ٢/ ٦٣٠ . دار الكتب الاسلاميّة ـ طهران .

وأوّلوا ذلك بأنه نزل على سبع قراءات ، معتمدين على روايات آحاد لا تصمد أمام الحوار العلمي [١] .

ويؤيد ذلك أن عثمان بن عفان حين وضع المصحف الإمام إنما أراد توحيد القراءات بعد أن اختلف الناس في الامصار ، وتعددت قراءاتهم ، وتشير الروايات الكثيرة الى أن سبب وضع مصحف موحّد بأمر من عثمان بن عفان ، هو الاختلاف في القراءات ، كما روى البخاري عن أنس أن حذيفة بن اليمان أفزعه الاختلاف في القراءة ، بعد أن سمع اختلاف أهل أرمينية وأهل العراق وأذربيجان والشام ، فأخبر عثمان بن عفان بذلك ، فأقدم عثمان على جمع الناس على قراءة واحدة ، وأرسل سبعة مصاحف الى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة وحبس واحداً بالمدينة [٢] .

(وقال الحارث المحاسبي : المشهور عند الناس أن جامع القرآن عثمان ، وليس كذلك ، إنما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد على اختيار وقع بينه وبين من شهده من المهاجرين والأنصار لمّا خشي الفتنة عند اختلاف أهل العراق والشام في حروف القراءات . فأما قبل ذلك فقد كانت المصاحف بوجوه من القراءات المطلقات على الحروف السبعة . . .) [٣] .

---

(١) أبو القاسم الخوئي ، البيان في تفسير القرآن : ص١٣٧ .

(٢) جلال الدين السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن : ١٧٢/١ . وقيل : أرسل بأربعة ، وقيل : بخمسة .

(٣) جلال الدين السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن : ١٧١/١ .

ويمكننا تلخيص الآراء الاساسية في مدرسة الشيعة الخاصة بالقراءات بالآتي :

١ ـ إنّ القرآن نزل بقراءة واحدة على النبي محمد ﷺ .

٢ ـ القراءات المتعددة غير متواترة وطرقها آحاد .

٣ ـ إنّ الإختلاف في القراءة ، هو من اجتهاد القرّاء ، ومن قبل الرواة .

٤ ـ إنّ بعض القراءات يغيّر المعنى ، وهذا التغيير هو تحريف للقرآن .

٥ ـ جوّز فقهاء الشيعة الامامية القراءة بالقراءات السبع ، كما جوّزوا القراءة بغيرها من القراءات المتعارفة في عهد أئمة أهل البيت عليهم السلام [١] ، وللإيضاح ننقل عن السيد الخوئي رحمه الله قوله : (يجوز القراءة في الصلاة بكل قراءة كانت متعارفة في زمان أهل البيت عليهم السلام ، والواجب هو قراءة القرآن بخصوصه ، لا ما تصدق عليه القراءة العربية الصحيحة . نعم الظاهر جواز الاكتفاء بكلّ قراءة متعارفة عند الناس ، ولو كانت من غير السبع) [٢] .

وقال الطوسي : (فالوجه الأخير أصلح الوجوه على ماروي عنهم عليهم السلام من جواز القراءة بما اختلف القرّاء فيه) [٣] .

---

(١) أبو القاسم الخوئي ، البيان في تفسير القرآن : ص١٨٣ .

(٢) أبو القاسم الخوئي ، تعليقة على متن العروة الوثقى : ٥٠٢/١ .

(٣) التبيان : ج ١ ص ٩ . دار احياء التراث العربي .

ويبدو أن المستند لما ورد أعلاه ـ كما يتضح من السيد أبو القاسم ﷺ ـ هو ما روي عن أئمة أهل البيت ﷺ : «إقرأوا كما يقرأ الناس»[١] و «إقرأوا كما عُلّمتم»[٢].

٦ ـ عدم حجية القراءات السبع وغيرها في الاستنباط ، فلا يستدل بها على الحكم الشرعي ، أي أن الفقيه لا يعتمد في استنباط الحكم من القرآن الكريم على قراءة أحد القرّاء باعتبارها حجّة [٣].

وينبغي أن نوضح هنا أن القرآن هو غير القراءة ، كما يؤكد العلماء ؛ (أن تواتر القرآن لا يستلزم تواتر القراءات)[٤] .

فالقرآن هو ما نزل على النبي محمد ﷺ من الوحي بلفظه ومعناه ونظمه . والقراءة هي النطق بالقرآن .

والقراءة يجب أن تؤخذ عن النبي ﷺ كما تلقّاها عن ربّ العزة ، قال تعالى : ﴿فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه﴾ فإن النطق بالقرآن المغاير للكيفية التي قرأ بها الرسول الأمين محمد ﷺ غير جائز ، إنما أجاز العلماء القراءات التي لا تخلّ بالمعنى الذي تضمّنه القرآن ، والتي لم ترد فيها قراءة معتمدة عن النبي ﷺ .

---

(١) الكليني ، الكافي : ٦٣٣/٢ .

(٢) الكليني ، الكافي : ٦٣١/٢ .

(٣) أبو القاسم الخوئي ، البيان في تفسير القرآن : ١٨٠ .

والبعض جوّز الاستدلال بالقراءات على الحكم الشرعي ، المصدر السابق .

(٤) أبو القاسم الخوئي ، البيان في تفسير القرآن : ص ١٧٤ .

وينبغي الانتباه هنا الى حقيقة بلاغية ، وهي أن الله سبحانه حينما اختار هذا المفرد اللغوي دون غيره ، ووضعه الى جنب لفظ دون غيره ، كان الاختيار لحكمة إعجازية ، فإيقاع الحروف ، وتناسق النطق بها ، والتناغم بين الكلمات والحروف والأصوات وغيرها ، كلّها من مقاصد الصياغة القرآنية ، لذا فإن استبدال كلمة بكلمة أخرى في القراءة التي هي من قبيل التفسير لا يحفظ جمال القرآن وإعجازه . فقوله تعالى : **﴿كالعهن المنفوش﴾** لا يساويه في الصياغة والبلاغة : كالصوف المنفوش ، كما في بعض القراءات (كما يروى عن ابن مسعود) .

ونخلص في نهاية المطاف الى أن لا صحة للرأي القائل : إنّ القرآن نزل على سبعة أحرف ، فقد ردّ العلماء المحققون هذه الروايات ، كما أكّدوا أن القراءات السبعة المشهورة ، ليست هي القراءات الوحيدة ، بل هناك قراءات عشر وأربع عشرة ، وأن حصر القراءات في سبعة ، كما ذكرنا جاء متأخراً ، ويعود تمييز هذه القراءات عن غيرها وتبنّيها بالشكل المتميز الى الإمام أبي بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد ببغداد على رأس الثلاثمائة من الهجرة ... [1] .

وفيما يلي نذكر نموذجاً لاختلاف القراءات ، وتعددها ، وأثرها في المعنى :

---

(١) أبو القاسم الخوئي ، البيان في تفسير القرآن : ص١٧٦ .

﴿ولا يحسبنَّ الذين كفروا أنَّما نُملي لَهُم خيرٌ لأنفسِهم إنَّما نُملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذابٌ مُهين﴾ .

[*القراءة*] قرأ ابن كثير وأبو عمرو ولا يحسبن الذين كفروا ولا يحسبن الذين يبخلون ولا يحسبنّ الذين يفرحون كلهم بالياء وكسر السين ، وكذلك فلا يحسبُنّهم بضم الباء والياء وكسر السين ، وقرأ حمزة كلها بالتاء وفتح السين وفتح الباء من يحسبنهم ، وقرأ أهل المدينة والشام ويعقوب كلها بالياء ، إلّا قوله فلا تحسبنهم بالتاء ، وفتح الباء ، إلّا إنّ أهل المدينة ويعقوب كسروا السين ، وفتحها الشامي ، وقرأ عاصم والكسائي ، وخلف ، كل ما في هذه السورة بالتاء إلّا حرفين ، ولا يحسبن الذين كفروا ، ولا يحسبن الذين يبخلون ، فإنهما بالياء ، غير أن عاصماً فتح السين ، وكسرها الكسائي .

[*الحجة والإعراب*] مَن قرأ بالياء فالذين في هذه الآية في موضع الرفع بأنه فاعل وإذا كان الذين فاعلا ، ويقتضي حسب مفعولين ، أو ما يسدّ مسدّ المفعولين ، نحو حسبت أن زيداً منطلق ، وحسبت أن يقوم عمرو ، فقوله تعالى : ﴿أنما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم﴾ قد سدّ مسدّ المفعولين الذين يقتضيهما يحسبن . (وما) يحتمل أمرين (أحدهما) أن يكون بمعنى الذي فيكون تقديره لا يحسبن الذين كفروا أن الذي نمليه لهم خير لأنفسهم (والآخر) أن يكون ما نملي بمنزلة الاملاء ، فيكون مصدراً ، وإذا كان مصدراً لم يقتض راجعاً إليه ، وقال المُبرِّد من

قرأ يحسبن بالياء فتح إنَّ ، ويقبح الكسر مع الياء ، وهو جائز على قبحه ؛ لأن الحسبان ليس بفعل حقيقي ، فهو يبطل عمله مع إنَّ المكسورة ، كما يبطل مع اللام ، كما يجوز حسبت لعبد الله منطلق يجوز على بعدٍ حسبت ان عبد الله منطلق ، وقال أبو علي الوجه فيه أن يتلقى بها القسم ، كما يتلقى بلام الابتداء ، وتدخل كل واحد منهما على الابتداء والخبر ، فكأنّه قال : لا يحسبن الذين كفروا للآخرة خيراً لهم ، وأمّا قراءة حمزة بالتاء من تحسبن ، وبفتح إنَّ ، فقد خطّأه البصريون في ذلك ؛ لأنه يصير المعنى ولا تحسبن الذين كفروا املاءنا ، وذلك لا يصح ، غير أن الزجاج قال : يجوز على البدل من الذين ، والمعنى ولا تحسبن املاء للذين كفروا خيراً لهم ، ومثله في الشعر .

وما كان قيسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ واحدٍ   ولكنّهُ بُنيانُ قومٍ تهدّما

قال أبو علي : لا يجوز ذلك لأنك إذا أبدلت إن من الذين كفروا لزمك أن تنصب خيراً من حيث كان المفعول الثاني ، ولم ينصبه أحد من القراء وإذا لم يصح البدل لم يجز فيه إلّا كسر إنَّ على أنّه يكون إنَّ وخبرُها في موضع المفعول الثاني من تحسبنّ)[1] .

ومن خلال ما تقدم من حوارات بين القرّاء يتضح لنا أثر القراءة في تحديد المعنى ،

---

(١) الطبرسي ، مجمع البيان في تفسير القرآن .

التفسير والسياق القرآني

عرَّف الشهيد الصدر السياق وأثره في فهم مراد المتكلم بقوله :

« ... ونريد بالسياق كل ما يكشف اللفظ الذي نريد فهمه من دوَال أخرى ، سواء كانت لفظية ، كالكلمات التي تشكل مع اللفظ الذي نريد فهمه كلاماً واحداً مترابطاً ، او حالية كالظروف والملابسات التي تحيط بالكلام ، وتكون ذات دلالة في الموضوع ... »[1] .

الواضح أن المتكلم والكاتب حينما يرتب أفكار الحديث وألفاظه أو موضوعه الكتابي ، ويضع العبارات في سياق متتابع ، فيضع هذه العبارة في موقع معيّن ، ويضع غيرها في موضع آخر ، وهو ملتفت الى ما يفعل ، وقاصد لذلك إنما يريد أن يوضح مراده بتنظيم كلامه ، وترتيب أفكاره وعباراته ، وبعبارة أخرى يكون السياق أو البنية المتتالية للنص قرينة يلجأ اليها في فهم مراده وقصده من كلامه .

والقرآن الحكيم هو كلام الله تعالى المتصف بالدقة والإتقان ، لذا فإنّ

(١) دروس في علم الأُصول : ح ١ ، مبحث حجية الظهور .

اختيار هذه المفردة دون غيرها لم يكن أمراً جزافاً، بل لغرض وغاية ترتبط بالبلاغة والمعنى.

والقرآن قد نظم بمشيئة إلهية على شكل سور، تشكل كل سورة منه وحدة قرآنية مستقلة، كما أن موضع كل كلمة وجملة وآية في القرآن، قد حدّد تحديداً إلهيّاً في سياق السورة وبنيتها لإبراز المعنى المراد.

وقد بيّن ابن عباس اهتمام الوحي بالسياق القرآني، وأن موضع الآية في السورة من القرآن إنما هو وضع إلهي، أي جزء من إلهيّة القرآن.

وبيّن ذلك بقوله (رض): «كان جبريل ﷺ إذا نزل على النبي محمد ﷺ بالوحي يقول له: ضع هذه الآية في سورة كذا، في موضع كذا. فلما نزل عليه: **﴿اتّقوا يوماً ترجعون فيه الى الله﴾** قال: ضعها في سورة البقرة».

لذا فأنّ الآية السابقة واللاحقة كثيراً ما تعين على فهم الآية ذات العلاقة بها، ومعرفة دلالتها ومصداقها إلّا إذا وجدنا قرينة أخرى مفسّرة على خلاف السياق، كسبب النزول، أو بيان نبوي... الخ.

ولننقل مثالاً على أثر السياق في تفسير المعنى عن المفسّر الكبير الشيخ الطبرسي ﷺ قال:

«النظم: ووجه إتصال قوله **﴿وليس البرُّ بأن تأتوا البيوت من**

ظهورها﴾ [1] بقوله **﴿يسألونك عن الأهلة﴾** أنه لما بيّن أن الأهلة مواقيت للناس والحج ، وكانوا إذا أحرموا يدخلون البيوت من ورائها عطف عليها قوله **﴿وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾** وقيل : إنّه لمّا بيَّن أن أمورنا مقدرة بأوقات قرن به قوله **﴿وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾** أي فكما أن أموركم مقدرة بأوقات ، فلتكن أفعالكم جارية على الاستقامة باتباع ما أمر الله به ، والانتهاء عمّا نهى عنه ؛ لأنّ اتباع ما أمر به ، خير من اتباع ما لم يأمر به » .

٦ ـ الحقيقة والمجاز:

من المباحث الاساسية في علوم اللغة هو مبحث الحقيقة والمجاز ، وهو من مباحث علم البلاغة ، واستعمال الحقيقة والمجاز من الاستعمالات الشائعة في لغة العرب شيوعاً واسعاً ، كقولهم للشجاع (أسد) ، ولجميل الوجه (قمر) ، ولكثير العلم (بحر) .

ويشكّل مبحث (الحقيقة والمجاز) أحد البحوث الأساسية في علم البلاغة ، ولهذا المبحث تأثير بالغ في فهم دلالة كثير من الألفاظ القرآنية وتأويلها ، لا سيّما ذات الدلالة العقيدية التي تحدّثت عن الصفات ، فقد ساهم حمل اللفظ على الحقيقة أو المجاز في تحديد المعتقد ، ونسبة الصفة الى الله تعالى ، وكان هذا الحمل هو الفاصل بين

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٨٩ .

الفــهمين ، والمــميّز بــين التــجسيم والتشبيه ، وبـين التـنزيه عـن المشابهة .

ومن الأمثلة على ذلك تأويل قوله تعالى : ﴿**وسع كرسيّه السماواتِ والأرضَ**﴾ على أساس حمل الاستعمال على المجاز ، فـ(الكرسي) في هذه الآية كناية عن الملك والسلطان ، وليس الكرسي بمعناه الحسّي ، فاستعمله القرآن مجازاً ، ولم يستعمله على نحو الحقيقة .

وكقوله تعالى : ﴿**يد الله فوق أيديهم**﴾ ، فـ(يد الله) في هذه الآية كناية عن الهيمنة والقهر والسلطان ، وليست اليد بمعناها الحسّي فاللفظ مستعمل في المجاز ، وليس في الحقيقة .

وكل تلك الاستعمالات هي من الاستعمال المجازي ، فإنّ حملها على الحقيقة يقود الى التجسيم والتشبيه ، وهو سبحانه منزّه عن ذلك ، فهو كما وصف نفسه : ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾ .

ومثلها قوله تعالى : ﴿**وجاء ربّك والملك صفّاً صفّاً**﴾ فـقد فسّره الزمخشري بقوله : (واعلم أن الكلمة كما توصف بالمجاز ، لنقلها عن معناها الأصلي ، كما مضى ، توصف به أيضاً لنقلها عن إعرابها الأصلي الى غيره ، لحذف لفظ أو زيادة لفظ . أما الحذف فكقوله تعالى : ﴿**واسأل القرية**﴾ أي أهل القرية . فإعراب القرية في الأصل هو الجر ، فحذف المضاف ، وأعطي المضاف اليه إعرابه .

ونحوه قوله تعالى : ﴿وجاء ربّك﴾ ، أي أمر ربّك . . .)[1] .

وهكذا يتضح الفارق العقيدي بين من يجعل المجيء لله ، وهو يعني الانتقال والحركة اللتين يتنزّه الله عنهما ، وبين من يجعل المجيئ لأمر الله ، كما فسّره الزمخشري ، محمولاً على المجاز .

واعتماد المجاز في التفسير منهج لغوي اتبعه معظم المفسرين من مختلف المذاهب الاسلاميّة ، عدا أهل الظاهر والحشوية وأمثالهم من المشبهة والمجسّمة .

---

(١) الزمخشري ، الايضاح في علوم البلاغة : ص١٨٢ .

التأويـل

التأويـل والتـفسير مـصطلحان قـرآنـيان نـطق بـهما القـرآن ، ثـم استعملهما المسلمون بعد ذلك ، ولقد أصبح التفسير والتأويل عِلْمين من أكثر علوم القرآن أهـمية ، وأثـراً فـي الفكـر والتشـريع والمـعارف الاسـلامية .

قال الله تـعالى : **﴿ . . . ولا يأتونك بمثل إلّا جـئناك بـالحق وأحسـن تفسيراً﴾** [1] وقال تعالى : **﴿ . . . ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾** [2] .

﴿ . . . وأما الذين في قلوبهم مرضٌ فيتبعون ما تشـابه مـنه ابـتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يـعلم تأويـله إلّا الله والراسـخون فـي العـلم يقولون آمنا به كلّ من عند ربنا﴾ [3] .

﴿هل ينظرون إلّا تأويله يوم يأتي تأويله . . . ﴾ [4] .

---

(١) سورة الفرقان ، الآية ٣٣ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٥٩ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية ٧ .

(٤) سورة الأعراف ، الآية ٥٣ .

التأويل في اللغة:

عرّف اللغويون معنى التأويل في اللغة، وأوضحوه بشكل محدد ودقيق، نذكر من تلك التعاريف:

قال الفيّومي في المصباح المنير [آل الشيء (يؤول) (أولاً) و (مآلاً) رجع].

وقال ابن الأثير في النهاية: (والتأويل: هو من الشيء يؤول الى كذا، أي رجع، وصار اليه...).

وقال الراغب الأصفهاني: (التأويل من الأول، أي الرجوع الى الأصل. ومنه المَوْئِل للموضع الذي يُرجع إليه. وذلك هو ردّ الشيء الى الغاية المرادة منه، علماً كان أو فعلاً، ففي العلم نحو: **﴿وما يعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم...﴾** وفي الفعل كقول الشاعر:

وللنوى قبل يوم البين تأويل)

وقوله تعالى: **﴿وهل ينظرون إلّا تأويله يوم يأتي تأويله﴾** أي بيانه الذي هو غايته المقصودة منه.

وقوله تعالى: **﴿ذلك خير وأحسن تأويلا﴾** قيل أحسن معنى وترجمة[1].

ولقد ساهم علم التأويل مساهمة فعّالة وأساسية في فهم آيات الأعتقاد، لاسيما المتعلّقة بصفات الله تعالى.

---

(١) المفردات في غريب القرآن: باب أول.

وقد حدثت على مرِّ العصور معركة فكرية حامية حول منهج التأويل وما أنتجه من فكر ومعرفة، وعُرّض الفكر الشيعي لنقد حاد من خصومه، بسبب اهتمامه بالتأويل، واعتماده أساساً في حفظ التوحيد نقيّاً من التشبيه والتجسيم.

ومن الواضح تأريخياً أن التأويل منهج علمي اسلامي عام وليس منهجاً شيعياً أو معتزليا خاصاً، كما يتصور البعض. هو وسيلة تعبيريّة من صميم الطبيعة اللغوية، لذا فمنهج التأويل فرضته حقائق علمية ولغوية، وليس منهجاً مرتجلاً عبثياً. ومن دراسة وتحليل معنى وتعريفات التأويل، وما ورد في الكتاب والسنة فيه، والوقوف على مصاديقه، وموارد انطباقه، والنتائج الفكرية التي أفرزها هذا المنهج، نستطيع أن نستنتج الآتي:

١ ـ إنَّ التأويل اسلوب معرفي عام يستعمله العقل البشري لاكتشاف الغوامض مما يشير اليه اللفظ أو الحدث أو الرمز، فقد اعتاد الناس ولأسباب فنيّة أن يعبّروا عن مقاصدهم أحياناً بطريقة لاتكشف إلّا بالتأويل، كما أنّ بعض الأفعال والحوادث الصادرة عن الانسان أو الحيوان أو النبات أو الجماد إنّما هي رموز تكشف عن حقيقة غير مصرح بها في ذلك الفعل أو الحدث، واستنتاجها هو التأويل.

٢ ـ ان التأويل هو منهج نطق به القرآن، وبالتالي فهو منهج مشروع، لو أحسن استخدامه وتطبيقاته بعيداً عن المحاذير التي حذَّر منها القرآن بقوله: ﴿... ابتغاء الفتنة﴾.

٣ ـ ان طبيعة البيان القرآني حوت المحكم والمتشابه ، كما نص القرآن على ذلك ، وأن المتشابه يحتاج فهمه في كثير من الأحيان الى التأويل والى ردّه الى المحكم .

٤ ـ انّ هناك معان عقيدية ترتبط بالذات الألهية ، وبعالم الغيب وهي منزّهة عن المادية والحسّية ، لابد من تفهيمها الأنسان ، وذلك التفهيم يقتضي التعبير عنها بألفاظ لغوية ، كصفة الحب والعلم والحياة والسمع والبصر واليد والكرسي والاستواء والغضب والارادة والمكر والخديعة والكراهية والأسف والسخط والرضا . . . الخ وصف الله سبحانه نفسه بها .

والمتلقي حين يتعامل مع تلك الصفات تعاملاً ظاهرياً ، وفق اللفظ الظاهري ، فإنه يقع في الشرك ، ويفهمها من خلال فهمه للصفات الأنسانية ، فلا يفرّق بين مصاديق تلك الصفات ، فبعضها ، حسب دلالتها الحسيّة ، تعبّر عن صفات انفعالية كما في عالم الانسان النفسي والانفعالي كصفة المكر والخديعة والغضب .

أمّا حين يوصف بها الخالق العظيم فيجب تنزيهه عن مشابهة الخلق ، وعن كل قبيح ، فهو سبحانه وصف نفسه بقوله : **﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾** .

ودعا في موارد عديدة من كتابه الكريم الى التسبيح ، وأكّد أن كل ما في هذا الوجود من عوالم إنّما هو مُسبّح يشهد بتنزيهه عن مشابهة المخلوقين ، فليس علمه كعلم المخلوقين ، ولا حُبُّه وإرادته وغضبه

ورضاه ، كالذي يحدث في النفس الانسانية ، وليس مكره وخديعته كالصفة الأخلاقية الذميمة عند الانسان ، وليس بين الحقيقتين إلّا الاشتراك اللفظي دون المعنوي ، فمعنى المكر الذي وصف الله به نفسه سبحانه ، هو إيقاع المجرمين في حبائل جرائمهم ، من حيث لا يشعرون .

وحين يستعمل القرآن تلك الألفاظ لوصف التعامل الالهي مع الانسان إنّما استعملها لأنها أدوات لتفهيم الفكرة للانسان ، والتي تُعين على إدراك صفات الذات والأفعال الالهية ادراكاً تحدّده ضوابط التنزيه ونفي المشابهة ، وأن من ضوابط التنزيه هو التأويل ـ أي حمل الألفاظ على المعاني غير المنطبقة على المعاني الحسية المألوفة في عالم الانسان ، وبيان المقصود القرآني منها ، وفق ضوابط لغوية . وأسس قرآنية دالة على ذلك .

٥ ـ إن من مقتضيات التأويل في القرآن الكريم هو أن اللغة العربية لغة غنية بالمجاز ، وقد زخرت الآيات الكريمة بالمجاز الذي ينطلق من الاستعمال الحسي ليعبّر عن المجرّد المعنوي ، فكلمة اليد واليمين والوجه والعرش والكرسي ، التي استعملها القرآن في وصف الباري ، عزّ ذكره ، بها نفسه فقال : **﴿يد الله فوق أيديهم﴾** .

﴿والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عمّا يشركون﴾

﴿... أينما تولوا فثمّ وجه الله﴾

﴿وكان عرشه على الماء﴾

﴿وسع كرسيه السماواتِ والأرضَ﴾

إنَّ كل تلك المعاني إنّما هي معان مجازية ، فاليد في عالم الإنسان ـ مثلاً ـ اسم لتلك الجارحة الحسية ، وبما أنها أداة القوة والاحسان ـ وغيرها من الأفعال كُنِّي بها عن الاحسان والقُوّة ، فقيل ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ أي هو المهيمن والمتفوق عليهم .

ومن المفيد هنا أن ننقل آراء المفسرين من مختلف المذاهب الاسلامية ليتضح لنا أن علم التأويل منهج اسلامي عام أولاً ، وثانياً هو طريقة موضوعية أفرزتها طبيعة اللغة العربية ، وضرورة لتفهيم المعنى المجرد بطريقة حسيَّة ، وليس منهجاً تحميلياً ، لذا فان التحميل ليس تأويلاً إنّما هو عبث وقول بغير علم ، هاجمه القرآن بقوله :

﴿وأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾ .

والمقصود بابتغاء تأويله . ابتغاء حمله على ما لا يحتمله النص ، بل هو تحميل وتحكم من المؤوّل ؛ بغرض الفتنة والتحريف .

التأويل في المصطلح: ولأهمية التأويل وأثره في الفكر الاسلامي فقد حظي بالدراسة والمناقشة من قبل العلماء المختصين بعلوم القرآن فاهتموا به ، ودقّقوا في تعريفه ، ودراسة نتائجه ، فعرَّف بعضهم التأويل بالتفسير ولم يفرِّق بينهما ، في حين رأى آخرون أن من لم يُميِّز بين التفسير والتأويل لم يعرف من علوم القرآن شيئاً ، وليس هذا فحسب ، بل واختلفت عباراتهم في تعريف التأويل ، وتحديد حقيقته .

وفيما يلي نستعرض بعضاً من تلك التعاريف :

قال السيوطي (٩١١هـ) : (هو ما تُرك ظاهره لدليل)[١] .

ثم قال : (والتأويل إنَّما يُقبل إذا قام عليه دليل ، وكان قريباً)[٢] .

أمّا البعيد فلا ، كتأويل الحنفيَّة قوله تعالى : ﴿فاطعام ستين مسكيناً﴾ ستين مُدّاً على أن يقدَّر مضاف . . . ووجه البعد : اعتبار ما لم يذكر ، وهو المضاف ، والغاء ما ذكر وهو العدد . . .)[٣] .

وعرَّف الزركشي (٧٩٤ هـ) : التأويل بقوله : (. . . فكأن التأويل صرف الآية الى ما تحتمله من المعاني)[٤] .

ثم قال : (وقيل : أصله من الأيالة ، وهي السياسة ، فكأن المؤوّل للكلام يسوِّي الكلام ، ويضع المعنى في موضعه)[٥] .

وعرَّفه الطبرسي (القرن السادس) بقوله : (والتأويل رد أحد المحتملين الى ما يطابق الظاهر) ثم قال : (وقيل : التفسير كشف

---

(١) جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي ، التحبير في علم التفسير : ص ١١٠ ، دار الكتب العلميّة ـ بيروت (ط ١ سنة ١٤٠٨ هـ) .

(٢) جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي ، التحبير في علم التفسير : ص ١١٠ ، دار الكتب العلميّة ـ بيروت .

(٣) جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي ، التحبير في علم التفسير : ص ١١٠ . دار الكتب العلميّة ـ بيروت .

(٤) البرهان في علوم القرآن : ١٦٤/٢ .

(٥) البرهان : ١٦٤/٢ ، دار الكتب العلمية ـ بيروت (ط ١ سنة ١٤٠٨ هـ) .

المغطى ، والتأويل انتهاء الشيء ومصيره ، وما يؤول اليه أمره ، والمعنى مأخوذ من قولهم عنيت فلاناً ، أي قصدته ، فكأن المراد من قولهم عنى به كذا ، قصد بالكلام كذا [1] .

وعرَّفه أبو طالب التغلبي بقوله : (والتأويل تفسير باطن اللفظ ؛ مأخوذ من الأول ، وهو الرجوع لعاقبة الأمر . فالتأويل إخبار عن حقيقة المراد . . .) .

وعرَّفه الشهيد الصدر بقوله : (التأويل جاء في القرآن بمعنى ما يؤول إليه الشيء ، لا بمعنى التفسير ، وقد استخدم بهذا المعنى للدلالة على تفسير المعنى ، لا تفسير اللفظ ، أي على تجسيد المعنى العام في صورة ذهنية معيَّنة) [2] .

وعرَّفه العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي في تفسير الميزان بقوله : (إنّه الحقيقة الواقعيّة التي تستند اليها البيانات القرآنية ، من حكم أو موعظة ، أو حكمة وأنه موجود لجميع الآيات القرآنية ، محكمها ومتشابهها ، وأنه ليس من قبيل المفاهيم المدلول عليها بالألفاظ ؛ بل هي من الأمور العينية المتعالية من أن يحيط بها شبكات الألفاظ ؛ وانّما قيدها الله سبحانه بقيد الألفاظ لتقريبها من أذهاننا بعض التقريب . فهي كالأمثال تضرب ليقرِّب بها المقاصد ، وتوضح بحسب ما يناسب فهم

---

(١) مجمع البيان : ٦/ ٨٠ ، دار المعرفة (ط ١ سنة ١٤٠٦ هـ) .

(٢) محمد باقر الحكيم ، علوم القرآن : ص٧٨ .

السامع ، كما قال تعالى : **﴿ ... والكتاب المبين إنّا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وإنّه في أُمّ الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾** [1]) .

ثـم عـرّفه بـقوله : (... إنّ المـراد بـتأويل الآيـة ليس مـفهوماً مـن المفاهيم تدل عليه الآية ، سواء كان مخالفاً لظاهرها أو موافقاً ، بل هـو من قبيل الأمور الخارجيّة ، ولا كل أمر خارجي حتى يكـون المـصداق الخارجي للخبر تأويلاً له ، بل أمر خارجي مخصوص نسبته الى الكلام نسبة الممثَّل الى المثَل ، والباطن الى الظاهر) [2] .

ومن قراءة التعاريف الأخيرة الثلاثة يتضح لنا أنّ التأويل هو عـبارة عن بيان الحقيقة الخـارجـيّة للشـيء ، كـبيان المـقصود بـقوله تـعالى : **﴿وسع كرسيّه السماوات والأرض﴾** بأنّ الكرسي ، كـناية عـن المـلك والسلطان ، فالحقيقة الخارجيّة للكرسي فـي هـذه الآيـة هـي المـلك والسلطان ، وليست هي الكرسي المادي المألوف فـي عـالم الانسـان ، فهو تعبير مجاز ، وليس تعبير حقيقة .

---

(١) الميزان : ٤٩/٣ ، تفسير سورة آل عمران ، الآية ٧ .

(٢) المصدر السابق : ٤٦/٣ .

منهج التفسير في مدرسة أهل البيت عليهم السلام

لقد تعددت مناهج تفسير وفهم القرآن، وظهرت مدارس وآراء ومذاهب مختلفة في الصف الاسلامي، كالمنهج الظاهري، والمنهج الباطني، والمنهج الأثري والتفسير اللغوي، والتفسير بالرأي والمنهج المتعدد العناصر . . . الخ.

وكان لهذا التعدد أثره ونتائجه السلبية المختلفة الناتجة عن الاتجاهات غير السليمة في معظم تلك المناهج، ومن أبرز ما نتج عن ذلك من آثار سلبية، هو الجمود والتحجر الفكري، والتوقف في فهم القرآن، وتجميد دور العقل والنمو الفكري تارة، وتحميل القرآن آراء وقناعات المُفسِّر تارة أخرى، والشطط في فهم القرآن تارة ثالثة.

ولقد برز منهج علماء أهل البيت عليهم السلام في فهم القرآن منهجاً مستقلاً متوازناً يقوم على الأُسس العلمية التي حددها القرآن ذاته والمؤهِّلة لفهم القرآن، وتطوير العقل البشري وتنميته، وتحقيق الأصالة والنقاء إذا ما تفاعلت جميعها في عمل المفسر لتوصل الى فهم القرآن فهماً

سليماً ، إذا ما استكمل المفسر استيعاب تلك العناصر ، وتوفرت له مادّتها . وأبعد عمله عن الذاتية والقصور الذاتي .

ومع كل ذلك فإن النتائج التي يتوصل اليها المفسّر المجتهد تبقى اجتهاداً قابلاً للنقد والتمحيص ، ومحاولة لفهم المحتوى القرآني بالقدر المتيسر للمفسر .

وللتعريف بتلك العناصر فلنرجع الى كل من الشيخ الطوسي والشيخ الطبرسي ، وهما من أعلام الفكر الإمامي ، ومن أعاظم المفسرين (فالتبيان) للشيخ الطوسي و (مجمع البيان) للشيخ الطبرسي يعتبران من أعظم مراجع التفسير عند الشيعة الإمامية ، وما امتازا به من عمق ودقة ونقاء ، بل ويعتبر مجمع البيان مدرسة في علوم القرآن واللغة ، ومرجعاً فريداً في هذا المجال للمسلمين جميعاً .

فلنقرأ إذاً ما كتبا في منهج التفسير المعتمد في مدرسة أهل البيت عليهم السلام .

ومما يزيد هذا المنهج وضوحاً ، هو تطبيقهما لهذا المنهج ، وإشادة تفسيريهما على أساسه .

قال الشيخ الطوسي ملخصاً منهج التفسير الإمامي بقوله : (والذي نقول به : إن معاني القرآن على أربعة أقسام :

أحدها : ما اختص الله تعالى بالعلم به ، فلا يجوز لأحد تكلّف القول فيه ، ولا تعاطي معرفته ، وذلك مثل قوله تعالى : **﴿يسألونك عن**

الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجلّيها لوقتها إلّا هو ...﴾[1] ومثل قوله تعالى : **﴿إنَّ الله عنده علم الساعة ...﴾**[2] الى آخرها . فتعاطي معرفة ما اختص الله تعالى به خطأ .

وثانيها : ما كان ظاهره مطابقاً لمعناه ، فكل من عرف اللغة التي خوطب بها ، عرف معناها ، مثل قوله تعالى : **﴿ ...ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلّا بالحق ...﴾**[3] .

ومثل قوله تعالى : **﴿قل هو الله أحد﴾**[4] وغير ذلك .

وثالثها : ما هو مجمل لا ينبئ ظاهره عن المراد به مفصلاً . مثل قوله تعالى : **﴿أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ...﴾**[5] ومثل قوله : **﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ...﴾**[6] وقوله : **﴿وآتوا حقه يوم حصاده ...﴾**[7] وقوله : **﴿والذين في أموالهم حق معلوم﴾**[8] وما أشبه ذلك فإن تفصيل اعداد الصلاة وعدد ركعاتها ، وتفصيل مناسك

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٨٧ .

(٢) سورة لقمان ، الآية ٣٤ .

(٣) سورة الانعام ، الآية ١٥١ .

(٤) سورة التوحيد ، الآية ١ .

(٥) سورة البقرة ، الآية ٤٣ و ٨٣ و ١١٠ . النساء ، آية ٧٦ . الحج ، آية ٧٨ . النور ، آية ٥٦ . المجادلة ، آية ٣١ . المزمل ، آية ٢ .

(٦) سورة آل عمران ، الآية ٩٧ .

(٧) سورة الأنعام ، الآية ١٤١ .

(٨) سورة المعارج ، الآية ٢٤ .

الحج وشروطه ، ومقادير النصاب في الزكـاة لا يـمكن اسـتخراجـه إلّا ببيان النبي ﷺ ووحي من جهة الله تعالى . فتكلّف القول في ذلك خطأ ممنوع منه ، يمكن أن تكون الأخبار متناولة له .

ورابعها : ما كان اللفظ مشتركا بين معنيين فما زاد عنهما ، ويمكن أن يكون كل واحد منهما مراداً . فإنه لا ينبغي أن يقدم أحد به فـيقول : ان مراد الله فيه بعض ما يحتمل -إلّا بقول نبي أو إمام معصوم- بل ينبغي أن يقول : إن الظاهر يحتمل لأمور ، وكل واحد يجوز أن يكون مراداً على التفصيل . والله أعلم بما أراد .

ومتى كان اللفظ مشتركا بين شيئين ، أو ما زاد عليهما ، ودل الدليـل على أنه لا يجوز أن يـريد إلّا وجـهاً واحـداً ، جـاز أن يـقال : إنـه هـو المراد .

ومتى قسمنا هذه الأقسام ، نكون قد قبلنا هذه الأخبار ، ولم نـردها على وجه يوحش نقلتها والمتمسكين بها ، ولا منعنا بذلك من الكـلام في تأويل الآي جملة .

ولا ينبغي لأحد أن ينظر في تفسير آية لا ينبئ ظاهرها عن المـراد تفصيلاً ، أو يقلد أحداً من المـفسرين ، إلّا أن يكـون التأويـل مـجمعاً عليه ، فيجب اتباعه لمكان الاجماع ؛ لأن من المفسرين مـن حـمدت طرائقه ، ومدحت مذاهبه ، كابن عباس ، والحسـن ، وقـتادة ومـجاهد وغيرهم . ومنهم من ذمت مذاهـبه ، كأبـي صـالح والسـدي والكـلبي وغيرهم . هذا في الطبقة الاولى .

وأما المتأخرون فكل واحد منهم نصر مذهبه ، وتأول على ما يطابق أصله ، ولا يجوز لأحد أن يقلد أحداً منهم ، بل ينبغي أن يرجع الى الأدلة الصحيحة : إما العقلية ، أو الشرعية ، من اجماع عليه ، أو نقل متواتر به ، عمن يجب اتباع قوله ، ولا يقبل في ذلك خبر واحد خاصة إذا كان مما طريقه العلم ، ومتى كان التأويل يحتاج الى شاهد من اللغة ، فلا يقبل من الشاهد إلّا ما كان معلوماً بين أهل اللغة شائعاً بينهم . وأما طريقة الآحاد من الروايات الشاردة ، والالفاظ النادرة ، فإنه لا يقطع بذلك ، ولا يجعل شاهداً على كتاب الله ، وينبغي أن يتوقف فيه ويذكر ما يحتمله ، ولا يقطع على المراد منه بعينه ، فإنه متى قطع بالمراد كان مخطئاً ، وإن أصاب الحق ، كما روي عن النبي ﷺ لأنه قال تخميناً وحدساً ، ولم يصدر ذلك عن حجة قاطعة . وذلك باطل بالاتفاق)[1] .

وقال الشيخ الطبرسي ملخصاً المنهج الامامي ومتوافقاً مع الشيخ الطوسي ، فيما حدّده من العناصر المعتمدة في التفسير :

« واعلم أن الخبر قد صح عن النبي ﷺ وعن الأئمة القائمين مقامه عليهم السلام أن تفسير القرآن لا يجوز إلّا بالأثر الصحيح ، والنص الصريح ، وروت العامة أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال من فسّر القرآن برأيه فأصاب الحق فقد أخطأ ، قالوا : وكره جماعة من التابعين القول

---

(١) الطوسي ، التبيان : المقدمة ص ٥ ـ ٦ ـ ٧ ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .

في القرآن بالرأي ، كسعيد بن المسيّب ، وعبيدة السلماني ، ونافع وسالم بن عبد الله ، وغيرهم ، والقول في ذلك أن الله سبحانه ندب الى الاستنباط وأوضح السبيل إليه ، ومدح أقواما عليه فقال : ﴿ **لعَلِمَه الذين يستنبطونه منهم**﴾ . وذم آخرين على ترك تدبره ، والإضراب عن التفكر فيه ، فقال : ﴿**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾ . وذكر أن القرآن منزل بلسان العرب فقال : ﴿**إنا جعلناه قرآناً عربياً**﴾ ، وقال النبي ﷺ « إذا جاءكم عني حديث فاعرضوه على كتاب الله ، فما وافقه فاقبلوه ، وما خالفه فاضربوا به عرض الحائط » فبيّن أن الكتاب حجة ، ومعروض عليه ، ، وكيف يمكن العرض عليه ، وهو غير مفهوم المعنى . فهذا وأمثاله يدل على أن الخبر متروك الظاهر فيكون معناه إن صحَ أن من حمل القرآن على رأيه ، ولم يعمل بشواهد ألفاظه ، فأصاب الحق ، فقد أخطأ الدليل . وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « القرآن ذلول ، ذو وجوه ، فاحملوه على أحسن الوجوه » وروي عن عبد الله بن عباس أنه قسّم وجوه التفسير على أربعة أقسام : تفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير تعرفه العرب بكلامها ، وتفسير يعلمه العلماء وتفسير لا يعرفه إلّا الله عزوجل ، فأما الذي لا يعذر أحد بجهالته فهو ما يلزم الكافة من الشرائع التي في القرآن ، وجمل دلائل التوحيد ، وأما الذي تعرفه العرب بلسانها ، فهو حقائق اللغة ، وموضوع كلامهم ، وأما الذي يعلمه العلماء فهو تأويل المتشابه ، وفروع الأحكام . وأما الذي لايعلمه إلّا الله ، فهو ما يجري مجرى الغيوب ، وقيام الساعة ، وأقول أن

الإعراب أجل علوم القرآن فإن إليه يفتقر كل بيان، وهو الذي يفتح من الألفاظ الأغلاق، ويستخرج من فحواها الأعلاق. إذ الأغراض كامنة فيها، فيكون هو المثير لها، والباحث عنها، والمشير إليها، وهو معيار الكلام الذي لا يبين نقصانه ورجحانه حتى يعرض عليه، ومقياسه الذي لا يُميِّز بين سقيمه ومستقيمه، حتى يرجع إليه، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال اعربوا القرآن، والتمسوا غرائبه. وإذا كان ظاهر القرآن طبقاً لمعناه، فكل من عرف العربية والإعراب عرف فحواه ويعلم مراد الله به قطعاً.

هذا إذا كان اللفظ غير مجمل يحتاج الى بيان، ولا محتمل لمعنيين أو معان، وذلك مثل قوله: **﴿ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلّا بالحق﴾** وقوله: **﴿وإلهكم إله واحد﴾** وقوله: **﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾** وأشباه ذلك.

وأمّا ما كان مجملاً لا ينبئ ظاهره عن المراد به مفصلاً، مثل قوله سبحانه: **﴿أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾** فإنه يحتاج فيه إلى بيان النبي ﷺ بوحي من الله سبحانه إليه فيبين تفصيل أعيان الصلوات، وأعداد الركعات، ومقادير النصب في الزكاة، وأمثالها كثيرة الشروع في بيان ذلك من غير نص وتوقيف ممنوع منه. ويمكن أن يكون الخبر الذي تقدم محمولاً عليه.

وأما ما كان محتملاً لأمور كثيرة، أو لأمرين، فلا يجوز أن يكون الجميع مراداً بل قد دلّ الدليل على أنه لا يجوز أن يكون المراد به إلّا

وجهاً واحداً ، فهو من باب المتشابه لاشتباه المراد منه بما ليس بمراد فيحمل على الوجه الذي يوافق الدليل ، وجاز أن يقال إنّه هو المراد وإن كان اللفظ مشتركاً بين معنيين ، أو أكثر ، ويمكن أن يكون كل واحد من ذلك مراداً فلا ينبغي أن يقدم عليه بجسارة ، فيقال إنّ المراد به كذا قطعاً ، إلّا بقول نبي أو إمام مقطوع على صدقه ، بل يجوز أن يكون كل واحد مراداً على التفصيل ، ولا يقطع عليه ، ولا يقلد أحد من المفسرين فيه إلّا أن يكون التأويل مجمعاً عليه ، فيجب اتباعه لانعقاد الاجماع عليه ، فهذه الجملة التي لخصتها أصل يجب أن يرجع إليه ، ويعوّل عليه ، ويعتبر به وجوه التفسير ، وما اختلف فيه العلماء من نزول القرآن والمعاني والأحكام ».

وقد بين السيد الخوئي منهجه في التفسير قائلاً : (ولابد للمفسر من أن يتبع الظواهر التي يفهمها العربي الصحيح - فقد بينا لك حجية الظواهر - أو يتبع ما حكم به العقل الفطري الصحيح ، فإنه حجة من الداخل ، كما أن النبي حجة من الخارج ، أو يتبع ما ثبت عن المعصومين عليهم السلام فإنهم المراجع في الدين ، والذين أوصى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بوجوب التمسك بهم فقال : « إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً »[1] .

---

(١) البيان ، الخوئي : ص ٤٢١ - ٤٢٢ .

الخلاصة:

ومن قراءة وتحليل ما ثبته الشيخ الطوسي والطبرسي والسيد أبو القاسم الخوئي وغيرهم نكتشف بوضوح أنّ منهج التفسير في مدرسة أهل البيت عليهم السلام يعتمد العناصر الآتية جميعها لاكتشاف مراد الله تعالى من كتابه، وفهم معانيه ودلالاته ومعارفه، فهي:

١ ـ التفسير بالأثر الوارد عن النبي صلى الله عليه وآله أو أئمة أهل البيت عليهم السلام وان ما أثر عنهم عليهم السلام من تفسير وبيان قرآني، هو المرجع عند الاختلاف في فهم القرآن. وان هناك معان قرآنية، لايمكن تحصيلها إلّا عن طريق النبي صلى الله عليه وآله أو الإمام عليه السلام.

٢ ـ التفسير بالاعتماد على اللغة: فان القرآن نزل ببيان عربي يفهمه من عرف العربية معرفة بمستوى لغة العصر الذي نزل فيه الوحي.

واعتماد العنصر اللغوي يمكّن المفسّر من استخراج المعاني القرآنية التي لا إجمال فيها، ولا يحتمل معنيين أو عدة معان ـ كما ذكر الطبرسي ذلك ـ وهو ما صرّح به ابن عباس بقوله: (وتفسير تعرفه العرب بكلامهما).

٣ ـ التفسير بالاعتماد على العقل: واعتماد العقل في التفسير ملتزماً بما أثر عن النبي، وبعدم تجاوز البيان اللغوي الدالّ على المراد لهو منهج علمي يساهم باثراء العلم، ومعرفة وفتح آفاق الفهم والاستنباط من خزين معارف القرآن ما تحتاجه البشرية على امتداد عصورها، وان أفضل أداة لاكتشاف هذا الخزين الفريد هو العقل الملتزم. ويؤيده

ما استدل به العلماء من قوله تعالى : **﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾** .

وبعد ما مرَّ من تعريف بالتفسير نستطيع أن نلخص الأعمال التفسيرية التي يمارسها المفسِّر بالآتي :

١ - ***تفسير الألفاظ القرآنية الغريبة*** : مثل قوله تعالى : **﴿وجعلوا القرآن عضين﴾** وقوله تعالى : **﴿كأساً دهاقاً﴾** وقوله تعالى : **﴿جاءت الصاخّة﴾** فتفسير المفردات : « عضين ، ودهاقاً ، والصاخّة » وفهم معناها في اللغة وسيلة لفهم معنى الآية واكتشاف مضمونها .

٢ - ***تفسير معنى الآية المفردة*** : وهو المرحلة الثانية من التفسير والقادرة على اعطاء المعنى المحدود بحدود الآية .

٣ - ***التفسير الموضوعي***: وهو المنهج الذي يقوم على أساس دراسة الآيات ذات الصلة بموضوع جميعها ، كوحدة موضوعية ، يكمل بعضها البعض الآخر ، فمثلاً عندما يراد فهم قضية المال ، أو الحكم في القرآن ، أو مسألة الطلاق ، أو حقوق المرأة ، أو التوحيد ، تقوم الدراسة على أساس تجميع الآيات ذات الصلة بالموضوع ودراستها كوحدة موضوعية متكاملة لأجل الخروج بأحكام القرآن ومفاهيمه التي تعطينا صورة كاملة عن ذلك الموضوع .

فالآيات عندما تجمع وتدرس ضمن وحدة موضوعية ، نستطيع أن نفهم الرؤية القرآنية ، والنظرية الاسلامية المتكاملة في ذلك الموضوع .

تفسير القرآن بالقرآن

وكما تفسر السنة القرآن الكريم ، فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، واللجوء الى بعض الآيات في فهم وتفسير آيات أخرى هو منهج علمي سليم ، وقد وضع الإمام علي عليه السلام هذا المنهج بقوله : « القرآن ينطق بعضه ببعض ، ويشهد بعضه على بعض »[1] .

ومن أمثلة تفسير القرآن بالقرآن هو تفسير الامام علي عليه السلام لقوله تعالى : « وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » فسّرها بجمعها مع قوله تعالى : ﴿**والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين**﴾ ، فاستخرج من القرآن ـ من الآية الأولى والثانية ـ أن أقل مدة للحمل هي ستة أشهر .

وأن الرجوع الى آيات من القرآن لتفسير آيات أُخرى مبدأ أساس من مبادئ صيانة المعاني القرآنية ، وحمايتها من التحريف والتزييف ، لاسيّما في مجال العقيدة والفكر ، فالآيات المتحدثة عن صفات الله وأفعاله وعلاقة فعل الانسان بفعل الله تعالى : كآيات الهدى والضلال يفسّر بعضها بعضاً . فالآية الكريمة : ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع**

---

(١) نهج البلاغة : ص ١٩٢ د . صبحي الصالح .

البصير﴾ أساس لتفسير الآيات التي حاول البعض أن يستفيد منها فكرة التشبيه والتجسيم ، كقوله تعالى : **﴿يد الله فوق أيديهم﴾** وقوله سبحانه : **﴿الرحمن على العرش استوى﴾** فمن دلالة : **﴿ليس كمثله شيء﴾** نفهم أن معنى (يد الله) ومعنى (الاستواء) ليس معنى تجسيدياً ، فالله منزه عن مشابهة الخلق .

وبالاعتماد على الآيات الكريمة : **﴿إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً﴾**[1] .

أو قوله : **﴿وهديناه النجدين﴾** وقوله : **﴿لا يكلف الله نفساً إلّا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾**[2] .

أو قوله : **﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إنّ الله سريع الحساب﴾**[3] .

أو قوله : **﴿إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى . . .﴾**[4] .

بالاعتماد على احدى أو أكثر هذه الآيات نستطيع أن نفهم معنى قوله **﴿فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾**[5] .

---

(١) سورة الإنسان ، الآية ٣ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٨٦ .

(٣) سورة غافر ، الآية ١٧ .

(٤) سورة الزمر ، الآية ٧ .

(٥) سورة فاطر ، الآية ٨ .

وأمثالها من الآيات التي فُسّرت من قبل البعض تفسيراً خاطئاً ، فُسّرت باسناد الاضلال الى الله سبحانه ، بشكل جبري نافية لارادة الانسان واختياره لفعله ، وهو ما يتناقض وعدل الله سبحانه ، فهذه الآيات وكثير أمثالها تصف الانسان بأنه حُرّ مختار ، وهو يجازى بما كسبت يداه ، وأن الله تعالى لا يرضى لعباده الكفر ؛ لذا أُوّلت آيات الهدى والضلال تأويلاً سليما يتناسق والآيات الأُخرى ذات العلاقة بالموضوع .

وكتفسير قوله تعالى : **﴿اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم . . .﴾** بقوله تعالى : **﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقاً﴾** [1] .

فان الآية الثانية تبين المقصود بقوله تعالى : **﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾** .

وقد ذكر السيوطي هذا المنهج بقوله : (من أراد تفسير الكتاب العزيز طلبه أولاً من القرآن ، فإن أعياه ذلك طلبه من السنة ، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له) [2] .

---

(١) سورة النساء ، الآية ٦٩ .

(٢) الإتقان ، تحقيق محمد أبو الفضل : ١٧٥/٢ . المكتبة العصرية ـ بيروت .

التفسير وخبر الآحاد

خبر الواحد :

ويراد به الخبر الذي لم يحصل منه القطع بثبوت مؤدّاه[1] .

مما أجمع العلماء عليه هو أن مؤدى خبر الآحاد الذي لم يحتف بالقرائن الموجبة للعلم بصدقه أو الموجبة للأطمئنان اليه هو الظن ، ثم اختلفوا في اعتبار الخبر الذي لا يحتف بالقرائن الموجبة للعلم بصدقه أو الاطمئنان اليه . فذهب فريق الى وجوب العمل بخبر الآحاد هذا ، ويقود هذه المدرسة الشيخ الطوسي ﷺ ، وهو ما استقرّ عليه العمل عند علماء الشيعة الإمامية ، مُرجعين حجيته الى ورود ما يفيد القطع بوجوب العمل به من الشارع ، واستدلوا لذلك بأدلة من الكتاب والسنّة وغيرهما .

قال الشيخ الطوسي ﷺ معبّراً عن هذا الرأي : (والذي أذهب إليه أن خبر الواحد لا يوجب العلم ، وإن كان يجوز أن ترد العبادة بالعمل به عقلاً ، وقد ورد جواز العمل به في الشرع ، إلّا أن ذلك موقوف على

---

(١) الشهيد السيد محمد باقر الصدر ، دروس في علم الاصول ، الحلقة الثانية : ١٨٧ .

طريق مخصوص ، وهو ما يرويه من كان من الطائفة المحقّة ، ويختص بروايته ، ويكون على صفة يجوز معها قبول خبره من العدالة وغيرها)[1].

ثم يوضح موجب حجيّة خبر الواحد فيقول : (من عمل بخبر الواحد فإنّما يعمل به إذا دلّ على وجوب العمل به ، إمّا من الكتاب أو من السنّة والاجماع ، فلا يكون قد عمل بغير علم)[2].

ويؤيد ذلك فريق من أعاظم العلماء أمثال العلّامة الحلّي الذي صرّح بذلك بقوله : (خبر الواحد هو ما يفيد الظن ، وإن تعدد المخبر ، وهو حجّة في الشرع خلافاً للسيد المرتضى ولجماعة)[3].

أما المدرسة الثانية فيقودها السيد المرتضى ، ويؤيده ابن زهرة والطبرسي وابن ادريس وغيرهم ، وهي المدرسة التي أنكرت حجية خبر الواحد ، وبالتالي أسقطت جواز الاعتماد عليه ، والرجوع إليه .

قال السيد المرتضى ﵀ : (لابدّ في الأحكام الشرعية من طريق يوصل الى العلم ...) الى أن قال : (ولذلك أبطلنا العمل في الشريعة بأخبار الآحاد ؛ لأنها لا توجب علماً ولا عملاً ، وأوجبنا أن يكون العمل

---

(١) عدة الأصول : ١/ ٢٩٠ ـ ٢٩١ ، مؤسسة آل البيت للطباعة والنشر .

(٢) عدة الأصول : ١/ ٤٤ .

(٣) مبادئ الوصول الى علم الاصول ، تحقيق عبد الحسين البقال : ص٢٠٣ .

تابعاً للعلم ، لأن خبر الواحد إذا كان عدلاً فغاية ما يقتضيه الظن بصدقه ، ومن ظننت صدقه يجوز أن يكون كاذباً)[1] .

وهكذا تتشخص أمامنا المعركة العلمية حول خبر الآحاد غير المحفوف بالقرائن ، فالكل مجمعون على أنّه يفيد الظن .

غير أن فريقاً من العلماء آمن بوجوب العمل بخبر الآحاد هذا لورود الأدلّة القطعية على العمل به . وهذا يعني جواز الاعتماد على خبر الآحاد في التفسير بعد الوثوق بصدق راويه .

وينبغي أن نشير هنا الى أنّ خبر الآحاد اذا تعارض مع الكتاب العزيز سقطت قيمته ؛ لأنّه غير مشمول بدليل حجية خبر الآحاد . فالكتاب أساس لاثبات صحة الرواية وعدمها .

قال الفقيه السيد محمد باقر الصدر ﷺ : «إنّ هذه روايات معارضة للكتاب الكريم الدال على أنّه نزل تبياناً لكلّ شيء وهدى وبلاغاً ، والمخالف للكتاب من أخبار الآحاد لايشمله دليل حجية خبر الواحد ، كما أشرنا سابقاً »[2] .

وقد وردت روايات عديدة تأمر بعرض الروايات على كتاب الله للتأكد من صحتها ، نذكر منها :

---

(1) ابن ادريس ، مقدمة السرائر : ص٤٧ ، مؤسّسة النشر الاسلامي ـ قم (ط ٢ سنة ١٤١٠هـ) ،

(2) دروس في علم اصول الفقه : ٢١٩/٢ .

ما جاء عن الرسول ﷺ : « أيها الناس ماجاءكم عني يوافق كتاب الله فأنا قلته ، وما جاءكم يخالف كتاب الله فلم أقله »[1].

وقال ﷺ : « إنّ على كل حقٍّ حقيقة وعلى كل صواب نوراً ، فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه »[2].

ولعلّ من موارد التفسير هو تخصيص عموم القرآن وتقييد مطلقه ، بخبر الآحاد ، وهو ليس من التعارض مع القرآن ؛ لامكان الجمع العرفي بين الدلالتين ـ بين دلالة الخبر والظاهر القرآني ـ كما أفاد العلماء بذلك .

---

(١) الاصول من الكافي : ٦٩/١ ، دار الكتب الاسلامية طهران .

(٢) الاصول من الكافي : ٦٩/١ ، دار الكتب الاسلامية ـ طهران .

التفسير بين الذاتية والموضوعية

إن مسألة التعامل مع النص القرآني ، وإكتشاف ما يختزن ويشع به من معنى ومراد ، تفسيراً أو تأويلاً أو إظهاراً ، هي من أهم مسؤوليات الجهد العلمي الذي دعا اليه القرآن تحت عنوان التفكر والتدبر ، وفهم معنى القرآن ، أو فقهه أو تأويله ، أو استنباط محتواه .

وبما أن القرآن مصدر بقاء الشريعة والقانون الاسلامي ، ومقياس الضبط وتنظيم التفكير ، وضع العلماء القواعد الأساسيّة ، والمنهج العلمي المنظم لاستكشاف محتوى الخطاب القرآني .

وإن من أخطر ما يهدد التعامل مع القرآن وفهم معناه ، هو الذاتية ، والمسلمات القبْلية التي يحملها المفسر والباحث في القرآن ، وبالتالي يعمل هؤلاء المتعاملون مع القرآن علىٰ فرض آرائهم ومعتقداتهم وتحميلها علىٰ القرآن الكريم ، بل ترى المفسر وصاحب الرأي الكلامي أو الفلسفي أو غيرهما ، يعرض رأيه ونظريته في بعض الأحيان ثم يأتي بالآية ليسند بها ما يعتقده ، أو يفكّر به ، أو ما يريد إثباته ، وليس هذا تفسيراً ، ولا رجوعاً للقرآن ، ذلك لأنّ التفسير هو اكتشاف ما في آي القرآن ؛ لذا جرّت هذه الاتجاهات الى العبث بالمعنى القرآني

والتحريف لمحتواه . ذلك لأنه اخضاع المحتوى القرآني للاتجاهات الذاتية.

وفي البيان النبوي الشريف توضيح كافٍ للفصل بين الذاتية والموضوعية في التفسير . قال ﷺ : تعلّموا القرآن ، واقرأوه ، واعلموا أنّه كائن لكم ذكراً وذخراً ، وكائن عليكم وزراً ، فاتبعوا القرآن ولا يتبعنكم ، فانّه من تبع القرآن نهج به على رياض الجنة ، ومن تبعه القرآن زجّ به في قفاه حتى يقذفه في جهنم »[1] .

وقال ﷺ : « إنّما أتخوّف على أمتي من بعدي ثلاث ضلال : أن يتأولوا القرآن على غير تأويله ، ويتبعوا زلة العالم . . . فأمّا القرآن فاعملوا بمحكمه ، وآمنوا بمتشابهه ، وأما العالم فانتظروا فئته ، ولا تتبعوا زلّته . . . »[2]

ويؤكد الباحثون أن ما ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام من روايات أن أناساً حرّفوا القرآن ، إنما كانوا يقصدون بذلك تحريف معناه ، وليس تحريف كلماته وحروفه من الزيادة والنقصان ، كما تصور البعض .

وهذا التحريف للمعنى القرآني هو الذي تحدث عنه القرآن بقوله : ﴿يحرّفون الكلم عن مواضعه﴾ .

قال الشيخ الطوسي في تفسير هذه الآية (يعني يغيّرونها عن تأويلها)[3].

---

(١) الخصال : ١/٧٨.

(٢) مستدرك الوسائل : ١/٢٩٢ .

(٣) التبيان : سورة النساء ، الآية ٤٦.

إن المشكلة الكبرى في التفسير، أو الأخذ من القرآن، تكمن في خطأ المفسر، أو إخضاع الآية لرأيه، وكم هو دقيق تشخيص الامام علي عليه السلام لهذه الظاهرة عندما قال: « يعطف الهوى على الهدى إذا عطفوا الهدى على الهوى، ويُعطف الرأي على القرآن اذا عطفوا القرآن على الرأي »[1]، وتنتشر هذه الظاهرة في الفكر العقيدي بشكل أوضح. إذ عبثت الاتجاهات الباطنية، أو آراء بعض الفلاسفة والفرق الكلامية في الدلالات القرآنية.

ومن المفيد أن نذكر عيّنات من التفسير الذي يتحكّم فيها رأي المفسر بدلالة الآية.. من تلك العيّنات تفسير ابن عربي الباطني لقوله تعالى: ﴿... **وأخذهم الربا وقد نهوا عنه**﴾.

قال: (وأخذهم ربا فضول العلوم، كالخلاف والجدل واللذات البدنية، والحظوظ التي نهوا عنها...)[2].

وفسّر قوله تعالى: ﴿**ربّ اجعل هذا البلد آمنا...**﴾ فسّره بقوله: (أي، بلد البدن آمنا من غلبات صفات النفس، وتنازع القوى وتجاذب الأهواء)[3].

وكتب الشيخ محمد الغزالي ناقداً للذاتية المفسرة يقول:

---

(١) نهج البلاغة: ص ١٩٥ خ ١٣٨، تحقيق د. صبحي الصالح.
(٢) تفسير القرآن الكريم: ١/٢٩٧ ـ ٢٩٨ تحقيق د. مصطفى غالب ط ٢.
(٣) تفسير القرآن الكريم: ج ١ ص ٦٥٧.

(كنت أنظر أحياناً الى طريقتنا في فهم القرآن ، فكنت أجد أنها طريقة تستحق التأمل ، بمعنى : أنه لكي نقول : إن العمل الذي نؤديه هو من صنع الله ، استدللنا بالقرآن ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ وانتزعنا هذه الآية من السياق كله لكي تدل على مذهب أهل السنة : إن العمل مخلوق لله ، اونسينا أن هذا الكلام لو صحّ ، ماكان عبدة الأوثان مسؤولين ، لأنهم إذا كانوا مخلوقين لله ، وشركهم ووثنيتهم مخلوقة لله ، فما عليهم من ذنب ، لكن نحن أخذنا ظاهر الآية وقطعناها من سياقها ، من قبل ومن بعد ، وجعلناها دليلاً لرأي باطل . . إنّها آفة التجزيء)[1] .

وكتب الفقيه المفكر الاسلامي الشهيد السيد محمد باقر الصدر نقداً رافضاً للتفسير الباطني الذي أنكر حجية الظهور لتمرير آراء خاصة . قال ﷺ : «ذهب جماعة من العلماء الى استثناء ظواهر الكتاب الكريم من الحجية ، وقالوا بأنّه لايجوز العمل فيما يتعلق بالقرآن العزيز إلّا بما كان نصاً في المعنى ، او مفسراً تفسيراً محدّداً من قبل النبي ﷺ أو المعصومين من آله عليهم الصلاة والسلام »[2] .

ثمّ ردّ هذا الرأي الذي اعتمد روايات ضعيفة السند بل مكذوبة ، كما قال بأنّ رواتها في الغالب من ذوي الاتجاهات الباطنية المنحرفة على مايظهر من تراجمهم »[3] .

---

(١) محمد الغزالي ، كيف نتعامل مع القرآن : ص٧٣ . دار الوفاء للنشر ط سنة ١٤١٢هـ .
(٢) دروس في علم الأصول : الحلقة الثانية ، ص٢١٦ .
(٣) دروس في علم الاصول : الحلقة الثانية ، ص٢١٩ .

ثم قال ﷺ ؛ وثانياً : إنّ هذه روايات معارضة للكتاب الكريم الدال على انّه نزل تبياناً لكلّ شيء وهدى وبلاغاً ، والمخالف للكتاب من أخبار الآحاد لايشمله دليل حجية خبر الواحد ،كما أشرنا سابقاً »[1] .

كتفسيرهم لقوله تعالىٰ : **﴿إنّما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾** [2] .

بأنّ الخمر والميسر والأنصاب والأزلام هي أسماء لأشخاص يدعو القرآن لاجتنابهم ، وليست هي الحقائق الدّال عليها ظاهر اللفظ .

وتعريف التفسير بدقته العلمية وبأنه : (الكشف عن مراد الله تعالى من كتابه العزيز) .

يؤكد لنا أن تدخل الذاتية يحول دون الكشف عن مراد الله تعالى ، وبالتالي ليس ما تنتجه الذاتية هو تفسير لكتاب الله ، ولا كشف عن محتوى الآية ، بل هو رأي المفسر ، أو الباحث ، أو المستدل ، وتحميله لرأيه على الآية .

وحين تقرأ التفاسير والآراء العقيدية والفقهية والفلسفية والأخلاقية وغيرها نجد المذهبية الذاتية ظاهرة واضحة في فهم القرآن وتفسيره حتى صار التفسير والاستدلال بالقرآن عند البعض هو استدلال على ما يؤمن به ، وكأن القرآن أنزل ليؤيد رأيه واتجاهه المذهبي .

---

(١) دروس في علم الاصول : الحلقة الثانية ، ص٢١٩ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٩٠ .

ان المنهج السليم في فهم القرآن واكتشاف محتواه . هو المنهج العلمي الذي يتعامل مع القرآن كما يتعامل الباحث في مجال الطب والفيزياء والكيمياء . إنا وإن كنا نميز بين الاكتشاف المختبري في مجال الأبحاث الماديَّة ، وبين مجال الاكتشاف في العلوم الانسانية من صعوبة استبعاد الذات استبعاداً مطلقاً ، إلّا أن أمام الباحث في القرآن منهجاً علمياً للاكتشاف والاستنباط يحافظ على مساره في البحث الموضوعي ، إذا ما استفاد من المبادئ العلمية من غير عصبية ولا انحياز .



أسباب النزول

أسباب النزول مصطلح من مصطلحات علوم القرآن والدراسات القرآنية ، ويعني : السبب الذي من أجله نزلت الآية لتتحدث عنه ولتعرّفه ، أو تبين حكمه ، أو ظروفه وعناصره ، فإن آيات القرآن الكريم نزلت خلال ثلاثة وعشرين عاماً ، وكان نزولها على قسمين :

١ ـ قسم نزل إبتداء من غير حدث في محيط الدعوة البشري ، وهو معظم آيات القرآن الكريم ، وفي مختلف شؤون العقيدة والعبادة ونظام المجتمع . . . الخ .

٢ ـ قسم من آياته المباركة نزل بسبب الحوادث والوقائع التي حدثت في محيط الدعوة ، أو بسبب سؤال من بعض الأفراد ، كقوله تعالى : **﴿قل هو الله أحد* الله الصمد* لم يلد* ولم يولد* ولم يكن له كفواً أحد﴾** ، فسبب نزولها كما ورد في الكافي باسناده عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « إنّ اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : أنسب لنا ربك فلبث ثلاثاً لايجيبهم ، ثم نزلت **﴿قل هو الله أحد﴾** الى آخرها »[1].

---

(١) الكليني : ٧١/١ ، منشورات المكتبة الاسلاميّة ـ طهران ط سنة ١٣٨٨ هـ . وأسباب النزول للواحدي النيسابوري : ص٣٠٩ ـ ٣١٠ .

وكقوله تعالى : **﴿قد سمع اللهُ قولَ التي تجادلُكَ في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إنَّ الله سميعُ بصير﴾** [1] وسبب نزولها كما يذكر الواحدي النيسابوري [2] أنها نزلت في خويلة بنت ثعلبة عندما ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت .

عن عروة قال : قالت عائشة : تبارك الذي وسع سمعه كلّ شيء إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ، ويخفى عليَّ بعضه ، وهي تشتكي زوجها الى رسول الله ﷺ وهي تقول : يارسول الله أبلى شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبُر سنّي وانقطع ولدي ظاهر منّي ، اللّهمَ إني أشكو إليك ، قال : فما برحت حتّى نزل جبرئيل ﷺ بهذه الآيات **﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله﴾** .

وكقوله تعالى : **﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلّا أن يشاء الله . . .﴾** [3] وسبب نزولها كما أخرج الطبرسي في الرواية أنَّ النبيّ ﷺ سُئل عن قصّة أصحاب الكهف ، وذي القرنين فقال : أخبركم عنه غداً ، ولم يستثن فاحتبس الوحي عنه أياماً حتى شقَّ عليه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية يأمره بالإستثناء بمشيئة الله تعالى [4] .

---

(١) سورة المجادلة ، الآية ١ .

(٢) الواحدي النيسابوري : ص٢٧٣ .

(٣) سورة الكهف ، الآية ٢٣ ـ ٢٤ .

(٤) مجمع البيان ، الطبرسي : تفسير سورة الكهف .

وفي تفسير العيّاشي [١] عن عبد الله بن ميمون عن أبي عبد الله عليه السلام عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال : إذا حلف الرجل بالله فله ثنياها الى أربعين يوماً ، وذلك أن قوماً من اليهود سألوا النبي صلى الله عليه وآله عن شيء فقال : ائتوني غدا ـ ولم يستثن ـ حتى أخبركم ؛ فاحتبس عنه جبرئيل أربعين يوماً ثم أتاه وقال : **﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلّا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت﴾** .

وقوله تعالى : **﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله . . .﴾** [٢] وسبب نزولها روى السدّي عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في عليّ بن أبي طالب حين هرب النبيّ صلى الله عليه وآله عن المشركين الى الغار ونام عليّ عليه السلام على فراش النبي صلى الله عليه وآله ونزلت الآية بين مكّة والمدينة وروي أنّه لمّا نام على فراشه قام جبرائيل عند رأسه وميكائيل عند رجليه وجبرائيل ينادي بخٍ بخٍ ، مَنْ مثلك يا ابن أبي طالب ، يُباهي الله بك الملائكة [٣] .

وكآية المباهلة : **﴿فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونسائكم وأنفسنا وأنفسكم . . .﴾** [٤] وسبب نزولها : « قيل : نزلت الآيات في وفد نجران العاقب والسيّد ومن معهما ، قالوا لرسول الله :

---

(١) نقلاً عن تفسير الميزان للطباطبائي : ٣١١/١٣ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٠٧ .

(٣) مجمع البيان : ٥٣٥/٢ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية ٦١ .

هل رأيت ولداً من غير ذكر فنزل : ﴿إنَّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم . . . ﴾ الآيات . فقرأها عليهم ، عن ابن عباس وقتادة والحسن ، فلمّا دعاهم رسول الله الى المباهلة استنظروه الى صبيحة غدٍ من يومهم ذلك فلمّا رجعوا الى رحالهم قال لهم الأسقف : انظروا محمداً في غدٍ فإن غدا بولده وأهله فاحذروا مباهلته ، وإن غدا بأصحابه فباهلوه ، فإنّه على غير شيء ، فلمّا كان الغد جاء النبيّ ﷺ آخذاً بيد عليّ بن أبي طالب عليه السلام والحسن والحسين عليهما السلام بين يديه يمشيان وفاطمة عليها السلام تمشي خلفه ، وخرج النصارى يقدمهم أسقفهم ، فلمّا رأى النبيّ ﷺ قد أقبل بمن معه ، سأل عنهم ، فقيل له : هذا ابن عمّه وزوج ابنته ، وأحبّ الخلق اليه ، وهذان ابنا بنته من عليّ عليه السلام وهذه الجارية بنته فاطمة ، أعزّ الناس عليه ، وأقربهم الى قلبه ، وتقدّم رسول الله ﷺ فجثا على ركبتيه ، قال أبو حارثة الأسقف : جثا والله كما جثا الأنبياء للمباهلة ، فكع [1] ولم يقدم على المباهلة ، فقال السيّد : أُدنُ يا أبا حارثة للمباهلة ، فقال : لا إنّي لأرى رجلاً جريئاً على المباهلة ، وأنا أخاف أن يكون صادقاً ، ولئن كان صادقاً لم يَحُل والله علينا الحول وفي الدنيا نصراني يطعم الماء ، فقال الأسقف : يا أبا القاسم إنّا لا نباهلك، ولكن نصالحك فصالحنا على ما ينهض به ، فصالحهم رسول الله ﷺ على ألفي حلّة من حُلل الأواقي ، قسمة كل حلّة أربعون درهماً فما زاد ونقص فعلى حساب ذلك ، وعلى

---

(١) كع : ضعُف وجبن .

عارية ثلاثين درعاً ، وثلاثين رمحاً ، وثلاثين فرساً ، إن كان باليمين كيد ، ورسول الله ضامن حتى يؤديها ، وكتب لهم بذلك كتاباً .

وروي انّ الأسقف قال لهم : إنّي لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله ، فلا تبتهلوا فتهلكوا ، ولا يبق على وجه الأرض نصراني الى يوم القيامة .

وقال النبيّ : والذي نفسي بيده لو لاعَنُوني لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم الوادي عليهم ناراً ، ولما حال الحول على النصارى حتى يهلكوا كلهم . قالوا : فلما رجع وفد نجران لم يلبث السيد والعاقب إلّا يسيراً حتى رجعا الى النبيّ ، وأهدى العاقب له حلّة وعصا وقدحاً ونعلين وأسلما»[1] .

وكالآيات التي نزلت تتحدث عن معارك بدر وأُحد وحمراء الأسد وحنين وغزوات اخرى .

ولأسباب النزول أثر كبير في تحديد معنى الآية وتفسيرها ، ففهم سبب النزول يُعين على فهم المعنى والمراد القرآني .

ومن الجدير ذكره هو أن آيات القرآن النازلة في حدث معين لايختص حكمها بذلك الحدث ، ما لم يكن منحصراً به ، بل يعتبر ذلك الحدث مثالاً ومصداقاً لها ؛ لذلك جاءت القاعدة التشريعية : (العبرة بعموم المعنى لابخصوص اللفظ) أو: (خصوص المورد لايخصص الوارد) .

---

(١) مجمع البيان : ٢/٧٦٢ـ٧٦٣.

ولقد ثبّت الإمام الباقر عليه السلام هذا المبدأ عند تفسير قوله تعالى : **﴿ولكل قوم هاد﴾** .

فقد قال : «علي : الهادي ، ومنا الهادي ، فقلت (السائل) فأنت جعلت فداك . قال : صدقت : إن القرآن حي لا يموت ، والآية حية لاتموت ، فلو كانت الآية إذا نزلت في الأقوام وماتوا ماتت الآية لمات القرآن ، ولكن هي جارية في الباقين كما جرت في الماضين»[1] .

وأوضح الإمام الصادق عليه السلام بقوله لعمر بن يزيد لمّا سأله عن قوله تعالى : **﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾** : «هذه نزلت في رحم آل محمد صلى الله عليه وآله وقد تكون في قرابتك ، فلا تكونن ممن يقول للشيء : أنه في شيء واحد»[2] .

وروي عنه عليه السلام قوله : «ولو أن الآية إذا نزلت في قوم ثم مات أُولئك ماتت الآية لما بقي من القرآن شيء ، ولكن القرآن يجري أوله على آخره ، ما دامت السماوات والأرض ، ولكل قوم آية يتلوها منها من خير أو شر»[3] .

وهكذا يتحدد هذا المبدأ التشريعي والفكري العام تشخيصاً لمراد الله تعالى من كتابه . وتوضيحاً لخلود الشريعة ، وامتداد أحكامها .

وهكذا يتضح أنّ المفسّر يحتاج الى معرفة سبب النزول ليفهم المعنى.

---

(١) نقلاً عن السيد أبي القاسم الخوئي ، البيان في تفسير القرآن : ص ٣١ .

(٢) نقلاً عن السيد أبي القاسم الخوئي ، البيان في تفسير القرآن : ص ٣١ .

(٣) المصدر السابق .

الجري والانطباق وأسباب النزول:

ومن خلال قراءة ما ورد عن أئمة أهل البيت ﷺ من أن الآية جارية بأحكامها ومفاهيمها ما لم تكن خاصة في ذلك المورد ما دامت البشرية قائمة على هذه الأرض، وإن كانت قد نزلت بسبب حادثة معينة، فمن الضروري أن نميز عند التفسير بين سبب النزول وبين الجري والانطباق وبين علة التشريع.

فإن سبب النزول: هو الحادثة التي نزلت الآية بسببها، وأن الجري والانطباق يعني أن حكم الآية منطبق على تلك الحادثة، أو ذلك الشخص... الخ باعتباره أحد المصاديق، وكثيراً ما وقع الخلط بين سبب النزول والجري والانطباق عند بعض المفسرين. وهذا الجري والانطباق يحصل في الآيات ذات السبب والأخرى التي نزلت من غير سبب للنزول.

وأن علة التشريع: هي ما شرع الحكم من أجله: كعلة الاسكار في تحريم الخمر.

ومما ينبغي التعريف به في هذا المبحث هو أن أسباب النزول هي حوادث تأريخية، وأن رواية هذه الحادثة وصل الينا عن طريق الرواة، ولا بد لنا قبل قبول الخبر من التوثق من ناقله، لاسيما وأن يد التحريف قد امتدت الى هذه المسألة الخطيرة من تشخيص الحقائق، وبيان معاني القرآن، ومصاديق المعنى في المجتمع الانساني.

فمن أمثلة ذلك الآية الكريمة : **﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد﴾** .

فإنها نزلت في بيان فضل الإمام علي عليه السلام لمبيته على فراش النبي ليلة الهجرة .

في حين جاءت روايات أخرى تذكر أن هذه الآية نزلت في صهيب أو في غيره . ويؤكد المحققون من علماء المسلمين على اختلاف مذاهبهم أنها نزلت في علي عليه السلام . من ذلك نفهم أن سبب صرفها عن السبب الحقيقي لنزولها (في علي عليه السلام) هو ما دخل في الروايات من دس وتحريف ووضع .

وإذاً لابد لنا من التحقيق في سبب النزول قبل قبول ما ينقل . فإن ذلك يساهم في فهم المعنى الحقيقي وتشخيص المراد .

النســخ

المعنى اللغوي: (النسخ : إزالة شيء بشيء يتعقّبه ، كنسخ الشمس الظلّ ، والظلُّ الشمسَ ، والشَّيبُ الشّبابَ ، فتارة يفهم منه الإزالة ، وتارة يفهم منه الإثبات ، وتارة يفهم منه الأمران)[١] .

وفي المصباح المنير : (... قال ابن فارس : وكل شيء خلف شيئاً ، فقد انتسخه . فيقال : انتسخت الشمسُ الظلَّ ، والشيبُ الشبابَ ، أي أزاله ...)[٢] .

المعنى الاصطلاحي: ومن الواضح أن القرآن الكريم قد استعمل الالفاظ العربية بمعان خاصة ، فصارت لها بعد ذلك الاستعمال دلالات شرعية . تفهم عند الاطلاق ، فتحوّلت بذلك الى اصطلاحات قرآنية محددة المعنى والدلالة .

ومن خلال دراسة العلماء المختصين للنسخ في القرآن يتضح لنا أن لهذا المصطلح أكثر من استعمال . كما لهم آراء وتطبيقات متفاوتة نذكر أبرزها بعد إيراد التعريف الاصطلاحي للنسخ .

---

(١) الراغب الاصفهاني ، المفردات في غريب القرآن : كتاب النون .

(٢) الفيومي : المصباح المنير .

عرّف الراغب الاصفهاني النسخ بقوله: «نسخ الكتاب: إزالة حكم بحكم يتعقّبه. قال تعالى: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها﴾ قيل: معناه ما ننزل العمل بها، أو نحذفها عن قلوب العباد، وقيل: معناه ما نوجده وننزّله، من قولهم نسخت الكتاب...»[1].

وقال الفيومي:

«... والنسخ الشرعي: إزالة ما كان ثابتاً بنص شرعي، ويكون في اللفظ والحكم. وفي احداهما سواءٌ فُعِلَ، كما في أكثر الأحكام أو لم يُفعل، كنسخ ذبح اسماعيل بالفداء، لأن الخليل ﷺ أمر بذبحه، ثم نسخ قبل وقوع الفعل...»[2].

وقال الشيخ الطوسي: «وأما الناسخ فهو كل دليل شرعي يدل على زوال مثل الحكم الثابت بالنص الأول في المستقبل، على وجه لولاه لكان ثابتاً بالنص الأول مع تراخيه عنه»[3].

وعرّفه الشهيد الصدر بقوله: «والنسخ إذا أخذناه بمعناه الحقيقي وهو رفع الحكم بعد وضعه وتشريعه، بل واقع في الأحكام العرفية بلا كلام، وادعي وقوعه في الأحكام الشرعية من قبل بعض الأصوليين، فسوف لن يكون النسخ من باب التعارض والتنافي بين الدليلين بحسب الدلالة ومقام الاثبات؛ لأن الدليل الناسخ حينئذ

(١) المفردات في غريب القرآن.

(٢) الفيومي، المصباح المنير.

(٣) مقدمة التبيان: ١٢/١، دار احياء التراث العربي - بيروت.

لا يكون مكذباً للدليل المنسوخ ، لا بلحاظ دلالته على أصل الحكم المنسوخ ، ولا بلحاظ دلالته على دوامه واستمراره ، وإنما يكون دالاً على تبدل الحكم وتغيُّره ثبوتاً بعد أن كان نظر الشرع على طبق المنسوخ حدوثاً وبقاءً حقيقةً ، فالنسخ في الشريعة على هذا الأساس وإن كان من الاختلاف والتنافي في الحكم ، وقد يكون له مبرراته من التدرج في مقام التقنين والتشريع ، أو غيره من المبررات ، إلّا أنه يكون تنافياً في عالم الثبوت ، وليس من التعارض الذي هو التنافي في عالم الاثبات »[1] .

وعرَّف الفقيه الراحل السيد أبو القاسم الخوئي النسخ بقوله : « هو رفع أمر ثابت في الشريعة المقدسة بارتفاع أمده وزمانه »[2] .

وعرَّفه بقوله أيضاً : « المعروف بين العقلاء ، من المسلمين وغيرهم ، هو جواز النسخ بالمعنى المتنازع فيه : رفع الحكم عن موضوعه في عالم التشريع والانشاء »[3] .

ومن خلال التعريفات الآنفة الذكر يتضح لنا أن النسخ حاصل في الشريعة الاسلامية ، كما هو واقع في الشرائع الالهية الاخرى ، قد فعله المشرّع لحكمة ومصلحة ، ومن مظاهر هذه الحكمة أن يكون التشريع

---

(١) السيد محمود الهاشمي ، الجزء ٤ مجلد٧ ، تقرير أبحاث الشهيد السعيد آية الله السيد محمد باقر الصدر : تعارض الأدلة ص٢٩ ـ ٣٠.

(٢) البيان في تفسير القرآن : ص٢٩٦ .

(٣) البيان في تفسير القرآن : ص٢٩٧ .

مرتبطاً بالتكوين البشري ، وبطبيعة الأوضاع والتطورات البشرية المعاشة ؛ لذا كان التدرج في التشريع ، وكان التغيير والتبديل في الأحكام . وعند دراسة الاستعمالات وتعريفات (النسخ) يتضح لنا أن للنسخ عند العلماء استعمالات متعددة ، وفي التلخيص الآتي نقرأ هذه الاستعمالات والمعاني .

فقد جاء في المنتقى : «وقد كانت لفظة النسخ تعني عند الصحابة والتابعين مطلق التغير الذي يطرأ على بعض الأحكام ، سواء رفعها ، وحل محلها ، أو خص ما فيها من عموم ، أو قيد ما فيها من إطلاق وأمثالها من أساليب البيان»[1] .

«ثم جاء المفسرون فيما بعد ليجعلوا كلمة النسخ تعني ما يشمل التخصيص والتقييد والاستثناء ، وترك العمل بالحكم لأنتهاء أمده ، أو لتغيير ظرفه ، أو تبدل موضوعه وغيرها»[2] .

وهكذا يتضح لنا أن لكلمة النسخ عدة معان استعملت فيها عبر تأريخها ، غير أن استعمالها استقر لدى المتأخرين برفع الحكم واستبداله بحكم آخر .

وقد فُصلت مواضع التخصيص والتقييد والاستثناء ، والتي فهمها بعض القدماء عبارة عن نسخ جزني لاختلاط موضوعاتها لديهم ،

---

(١) علوم القرآن ، المنتقى : ص١٦٩ .

(٢) العتائقي الحلي ، الناسخ والمنسوخ : تحقيق الدكتور الفضلي ، مقدمة المحقق ٧.

ودرست دراسة مستقلة في مباحث علم أصول الفقه، وبذا صار مصطلح النسخ خاصاً برفع الحكم الثابت في الشريعة لانتهاء أمده وزمانه.

وقد أوضح الشهيد الصدر بقوله الآنف الذكر الفرق بين النسخ والتعارض، بأنّ النسخ هو التنافي في عالم الثبوت، في حين يكون التعارض تنافياً في عالم الأُثبات.

مجالات النسخ :

ويدرس النسخ في مجالين اثنين هما :

١ ـ نسخ اللاحق من الشرائع لما قبلها، كنسخ الشريعة الاسلامية لما سبقها من الشرائع.

٢ ـ نسخ بعض أحكام الشريعة الاسلامية لأحكام أخرى والحلول محلها.

ولتوضيح نسخ الرسالة الاسلامية لما سبقها من الرسالات ونلخّصه بالآتي :

١ ـ إنّ العقيدة التي بشّر بها الانبياء جميعاً، وهي عقيدة التوحيد، وما ارتبط بها من وحي ونبوة وبعث وجزاء، وغير ذلك من فروع العقيدة ومسائلها، هي عقيدة واحدة، لا تغيير فيها، ولا نسخ ولا تبديل، غير أن ما جاء به النبيون، كموسى وعيسى عليهما السلام قد حرِّف وغيِّر على أيدي المخرّبين العابثين برسالات الله، لذا نجد التفاوت بينها وبين ما جاء به القرآن الكريم.

٢ ـ إن كل ما أخبر الله به النبيين من وقائع وحوادث وتعريف بحقائق الوجود وأمثالها لا نسخ فيه ولا تبديل ؛ لأنه إخبار حق عن واقع وحقائق قائمة .

٣ ـ إن الأخلاق والقيم التي جاء بها النبييون ، هي قيم أخلاقية واحدة ، كالصدق والأمانة والعدل ... الخ فلا نسخ فيها ولا تبديل .

٤ ـ إن النسخ واقع في التشريع من العبادات والمعاملات وأحكام القضاء . . . الخ فما نسخته الشريعة الاسلامية من الرسالات الالهية السابقة هو محصور في التشريع .

٥ ـ وكما نسخت الشريعة الاسلامية الشرائع السابقة ، فقد وقع النسخ في أحكام الشريعة الاسلامية ذاتها لحكمة ومصلحة تتعلق بالتدرج في تطبيق الأحكام ، وإذاً فالحكم المنسوخ هو حكم مؤقت قد شرّعه المشرع الحكيم الى أجل ليستبدله بغيره لحكمة ومصلحة تتعلق بالانسان ذاته .

مجالات النسخ في الرسالة الاسلامية :

سبق الحديث عن مجالات النسخ بين الرسالات الالهية ، ونعود هنا فنتحدث عن النسخ في الشريعة الاسلامية ذاتها ـ كما نثبت أيضاً أن النسخ في الشريعة الاسلامية لا يشمل إلّا جانب الأحكام أيضاً ، كما مرّ سابقاً، فلانسخ في العقيدة، وقيم الاخلاق، أو ماأخبر الله سبحانه وتعالى به من وقائع، أو مابيّنه من علوم ومعارف، ولقداختلف علماءالاسلام في مايمكن أن يُنسخ من القرآن ـ أي ماينسخ من آيات القرآن وما لاينسخ .

ولايضاح هذه المسألة المتنازع عليها بين المسلمين نلخصها بالآتي :

١ ـ ان الآية الكريمة هي عبارة عن نص لفظي يحمل حكما شرعياً أو مفهوماً عقيدياً أو معرفة حقّة ، وهي قرآن يتلىٰ .

٢ ـ أجمع المسلمون على وقوع نسخ حكم الآية مع بقاء التلاوة ـ أي أن الآية باقية ، وهي جزء من القرآن يتلوها المسلمون ، غير أن حكمها مُعطَّل تعطيلاً نهائياً ؛ لاستبداله بغيره من الأحكام ، كآية النجوى : وهي قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدّموا بين يدي نجواكم صدقة . . .** ﴾ .

٣ ـ نسخ التلاوة وبقاء الحكم : اختلف المسلمون في وقوع النسخ بهذا المعنى ، فذهب الشيعة الامامية الى عدم وقوع هذا الصنف من النسخ وإنَّ ما اعتمد عليه في هذا المجال ؛ إن هو إلّا أخبار آحاد ، لاصحّة فيها ، إضافة الى أنّ النسخ لا يثبت بأخبار الآحاد باجماع المسلمين ، فليس هناك آية نسخت تلاوتها وبقي حكمها . أي ليست هناك آية كانت جزءاً يتلى من القرآن ، ثم رفعها الله سبحانه ، وهي غير موجودة الآن بتلاوتها ، مع بقاء حكمها . وذهب أتباع المذاهب الستة الى جواز ذلك . وقد مرَّ علينا في تعريف النسخ المتبنّى في هذه المدرسة ، كما في تعريف الفيومي الذي جاء فيه « . . . ويكون في اللفظ والحكم أو في إحداهما » .

وقد أشار الراغب الاصفهاني الى هذه النظرية عند تفسيره قوله

تعالى : ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها﴾ قيل : معناه ما نزيل العمل بها ، أو نحذفها عن قلوب العباد . . .) وقد استدل القائلون بهذه النظرية بآية الرجم .

ذكر السيوطي أن ابن أشتة : (أخرج في المصاحف عن الليث بن سعد : أول من جمع القرآن أبو بكر ، وكتبه زيد . . . وأن عمر أتي بآية الرجم فلم يكتبها ، لأنه كان وحده)(١) .

وآية الرجم التي ادعى عمر أنها من القرآن ، ولم يقبل منه . رويت بوجوه : منها : (إذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم)(٢) .

٤ ـ نسخ التلاوة والحكم : ولقد اختلف في وقوع هذا الصنف من الأحكام فذهب الشيعة الامامية الى عدم وقوعه في القرآن ، وليس هناك من دليل عليه ، وذهب بعض علماء المدرسة السنيّة الى وقوع ذلك في القرآن ، واستدلوا بروايات آحاد على ذلك ، منها أن عروة بن الزبير روى عن عائشة أنها قالت : (وكانت سورة الأحزاب تقرأ في زمن النبي ﷺ مائتي آية ، فلما كتب عثمان المصاحف ، لم نجد منها إلّا ما هو الآن)(٣) .

وقال السيوطي : (النسخ في القرآن ثلاثة أضرب : أحدها ما نسخ

---

(١) الاتقان : ١/١٦٧ ـ ١٦٨ ، المكتبة العصريّة ـ بيروت ط سنة ١٤٠٨ هـ.
(٢) أبو القاسم الخوئي ، البيان في تفسير القرآن : ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ .
(٣) المصدر السابق .

تلاوته وحكمه معاً . قالت عائشة : كان فيما أنزل : عشر رضعات معلومات ، فنسخن بخمس معلومات ، فتوفي رسول الله ، وهن مما يقرأن ـ رواه الشيخان . . .)[١] .

أدوات النسخ :

أما أدوات النسخ كما ذكرها العلماء ، فهي :

١ ـ ان السنة المتواترة والاجماع القطعي الكاشف عن السنة الناسخة ينسخان الحكم الثابت بالقرآن[٢] ، ولكن ليس لهذا الصنف من النسخ مثل واحد في الشريعة الاسلامية ؛ وانّما هو مجرد قول بالامكان والجواز ، وأجمع المسلمون أن النسخ لا يثبت بخبر الآحاد .

٢ ـ ان الحكم الثابت بالقرآن ينسخ بآية أخرى منه ناظرة الى الحكم المنسوخ ومبيِّنة رفعه ، وهذا القسم أيضاً لاإشكال فيه[٣] .

٣ ـ ان الحكم الثابت بالقرآن ينسخ بآية اخرى غير ناظرة الى الحكم السابق ولا مبيِّنة لرفعه ، وإنما يلتزم بالنسخ لمجرد التنافي بينهما ، فيلتزم بأنّ الآية المتأخِّرة ناسخة لحكم الآية المتقدمة .

والتحقيق أنّ هذا القسم غير واقع في القرآن[٤] .

---

(١) الإتقان : ٦٢/١ .

(٢) أبو القاسم الخوئي، البيان في تفسير القرآن : ص ٣٠٥ . منقول من الأصل بتصرّف.

(٣) المصدر السابق : ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦.

(٤) المصدر السابق .

وقال السيوطي : متحدثاً عن أدوات النسخ «واختلف العلماء ، فقيل : لا ينسخ القرآن إلّا بالقرآن ، لقوله تعالى : **﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾** قالوا : ولا يكون مثل القرآن ، وخيراً إلّا القرآن .

وقيل : بل ينسخ القرآن بالسنة ، لأنها أيضاً من عند الله : قال تعالى : **﴿وما ينطق عن الهوى﴾** وجعل منه آية الوصية الآتية .

والثالث : إذا كانت السنة بأمر الله تعالى من طريق الوحي نسخت ، وإن كانت باجتهاد [١] فلا . حكاه ابن حبيب النيسابوري في تفسيره .

وقال الشافعي : حيث وقع نسخ القرآن بالسنة ، فمعها قرآن عاضد لها وحيث وقع نسخ السنة بالقرآن فمعه سُنَّة معاضدة له ، ليتبين توافق القرآن والسنة . . . » [٢] .

ومن القضايا التي ينبغي إيضاحها عند الحديث عن النسخ هو ما ذهب إليه البعض من أن الشيعة تؤمن بأن الأئمة مُفوّض إليهم نسخ القرآن ، وقد سجل الشيخ الطوسي ذلك الزعم وردّ عليه قائلاً :

« وحكى البلخي في كتاب التفسير فقال : قال قوم ليسوا ممن يعتبرون ، ولكنهم من الأمة على حال : إنّ الأئمة المنصوص عليهم بزعمهم مُفوّض إليهم نسخ القرآن وتدبيره ، وتجاوز بعضهم حتى

(١) من الغريب حقاً أن يقال إنّ الرسول يجتهد من عند نفسه في تشريع ، وهو ليس أمراً من الله سبحانه .

(٢) الاتقان : ٣/٦٠ .

خرج من الدين بقوله : إن النسخ قد يجوز على وجه البداء ، وهو أن يأمر الله عزوجل عندهم بالشيء ، ولا يبدو له ، ثم يبدو له فيغيّره ، ولا يريد في وقت أمره به أن يغيّره هو ، ويبدله وينسخه ، لأنه عندهم لا يعلم الشي حتى يكون ، إلّا ما يقدُره فيعلمه علم تقدير ، وتعجرفوا فزعموا أن ما نزل بالمدينة ناسخ لما نزل بمكة »[1] .

ثم علق الطوسي راداً على ذلك بقوله : « وأظن أنه عنى بهذا أصحابنا الامامية ؛ لأنه ليس في الأمة من يقول بالنص على الأئمة عليهم السلام سواهم ، فان كان عناهم فجميع ما حكاه عنهم باطل ، وكذب عليهم ؛ لأنهم لا يجيزون النسخ على أحد من الأئمة عليهم السلام ولا أحد منهم يقول بحدوث العلم ، وإنّما يحكى عن بعض من تقدم من شيوخ المعتزلة ـ كالنظام والجاحظ وغيرهما ـ وذلك باطل ، وكذلك لا يقولون : أن المتأخر ينسخ المتقدم إلّا بالشرط الذي يقوله جميع من أجاز النسخ ، وهو أن يكون بينهما تضاد وتناف لا يمكن الجمع بينهما ، وأما على خلاف ذلك فلا يقوله مُحصِّل منهم »[2] .

وأوضح الفقيه الاسلامي الكبير الشهيد السعيد السيد محمد باقر الصدر أن النسخ محصور في سنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم دون ما صدر عن الأئمة عليهم السلام جاء في قوله : « وهكذا يتضح أن تغير آراء الشريعة عن طريق النسخ يكون أيضاً أحد العوامل المستوجبة للتعارض بين الأحاديث

(١) الطوسي ، التبيان : المقدمة ، ص١٣ ـ ١٤ .

(٢) المصدر نفسه .

والنصوص ، ولكن التعارض على أساس هذا العامل تنحصر دائرته في النصوص الصادرة عن النبي ﷺ ولا تعم النصوص الصادرة عن الأئمة عليهم السلام لما ثبت في محله من انتهاء عصر التشريع بانتهاء عصر النبي ﷺ وأنّ الأحاديث الصادرة عن الأئمة المعصومين ليست إلّا بياناً لما شرّعه النبي ﷺ من الأحكام وتفاصيلها »(١).

وبذا يوضّح الشهيد الصدر أنّ أحاديث الأئمة ليس لها قوة نسخ أحاديث الرسول ﷺ فكيف تكون لها قوة نسخ القرآن .

وهكذا يتضح بطلان التهمة الموجهة الى عقيدة الشيعة الامامية في هذه المسألة من خلال ما قرأنا من رد الشيخ الطوسي ، وتوضيح الشهيد الصدر .

وأخيراً نخلص الى:

١ ـ انّ النسخ هو عبارة عن رفع الحكم الثابت لانتهاء أمده وزمانه .

٢ ـ انّ النسخ محصور فقط برفع الحكم مع بقاء التلاوة .

٣ ـ لم تنسخ آية من كتاب الله من الناحية الفعلية إلّا بآية أُخرىٰ .

٤ ـ انّ نسخ الآية لآية أُخرىٰ محصور في أن تكون الآية قد جاءت موجّهة لنسخ تلك الآية فقط . أمّا أن تكون الآية اللاحقة مخالفة للسابقة فلا تُعدّ ناسخة لها .

---

(١) آية الله السيد محمود الهاشمي ، تقريرات بحوث آية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر ، تعارض الأدلة الشرعيّة : ص ٣٠ .

لذا فقد أبطل بعض المحققين المتأخرين كثيراً مما قيل إنها آيات ناسخة ، وأخرى منسوخة ، ولعلّ كتاب البيان في تفسير القرآن للسيد أبي القاسم الخوئي شاهد علمي معاصر على هذا الاتجاه .



المحكم والمتشابه

من المباحث الاساسية في علوم القرآن هو مبحث المحكم والمتشابه. والمحكم والمتشابه هما مصطلحان قرآنيان، استعملهما القرآن الكريم وعرّف أن آياته فيها المحكم والمتشابه.

وتعني كلمة المحكم في اللغة المتقن الذى لا اضطراب فيه ولا اختلاف. «ومنه حديث صفة القرآن (وهو الذكر الحكيم) أي الحاكم لكم، أو هو المحكم الذي منه حديث ابن عباس: قرأت المحكم على عهد رسول الله، يريد المفصّل من القرآن؛ لأنه لم ينسخ منه شيء، وقيل: ما لم يكن متشابها، لأنه أحكم بيانه بنفسه، ولم يفتقر الى غيره»[1].

عرّف العلماء المختصون بالتفسير والدراسات القرآنية المحكم والمتشابه بتعاريف مختلفة، وحدّدوا معناهما، فكانت هناك اتجاهات وآراء في تحديد وفهم معنى المحكم والمتشابه.

وفيما يلي نورد عدداً من تلك التعاريف:

---

(١) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: ٤١٩/١، مؤسّسة اسماعيليان.

عرَّف الراغب الاصفهاني المحكم بقوله : «ما لا يعرض فيه شبهة من حيث اللفظ ، ولا من حيث المعنى »[1] .

ونقل الحافظ جلال الدين السيوطي تعاريف عديدة للمحكم والمتشابه نذكر منها : «المحكم ما عُرف المراد منه ، إمّا بالظهور ، وأمّا بالتأويل ، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه ، كقيام الساعة ، وخروج الدّجال والحروف المقطّعة في أوائل السور »[2] .

وقيل : «المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلّا وجهاً واحداً ، والمتشابه ما احتمل أوجهاً »[3] .

ونقل عن عبد بن حميد عن الضحاك : «المحكمات ما لم ينسخ منه ، والمتشابهات ما قد نسخ »[4] .

وروي عن عكرمة وقتادة وغيرهما : «أن المحكم الذي يعمل به ، والمتشابه الذي يؤمن به ، ولا يُعمل به »[5] .

وعرَّف الفقيه السيد محمد باقر الصدر المحكم والمتشابه بقوله : «فالمحكم من الآيات ما يدل على مفهوم مُعيّن لا نجد صعوبة ، أو تردداً في تجسيد صورته ، أو تشخيصه في مصداق مُعيَّن . والمتشابه

---

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن .

(٢) جلال الدين السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن : ص٣ .

(٣) جلال الدين السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن : ص٤ .

(٤) جلال الدين السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن : ص٥ .

(٥) جلال الدين السيوطي ، الاتقان في علوم القرآن : ص٥ .

ما يدل على مفهوم معيّن تختلط علينا صورته الواقعية ومصداقه الخارجي»[1].

وعرّف الفخر الرازي المحكم والمتشابه بقوله: «... ان اللفظ إمّا أن يكون نصّاً، أو ظاهراً، أو مؤولاً، أو مشتركاً، أو مجملاً.

أمّا النص والظاهر فيشتركان في حصول الترجيح إلّا أن النص راجح مانع عن الغير. والظاهر راجح غير مانع من الغير، فهذا القدر المشترك هو المسمّى بالمحكم.

وأمّا المجمل والمؤول فهما مشتركان في أنّ دلالة اللفظ عليه غير راجحة. وإن لم يكن راجحاً لكنه غير مرجوح. والمؤول مع أنّه غير راجح فهو مرجوح لا بحسب الدليل المنفرد. فهذا القدر المشترك هو المسمى بالمتشابه، لأنّ عدم الفهم حاصل في القسمين جميعاً..»[2].

وورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إن القرآن محكم ومتشابه، فأمّا المحكم فنؤمن به، ونعمل به، وندين به، وأمّا المتشابه فنؤمن به، ولا نعمل به، وهو قول الله عزوجل: **﴿وأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه...﴾...»**

وورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أيضاً: «من ردّ متشابه القرآن الى محكمه هدي الى صراط مستقيم»[3].

---

(١) علوم القرآن: ص١٣٧.

(٢) الفخر الرازي، التفسير الكبير: تفسير سورة آل عمران، الآية ٧.

(٣) علوم القرآن عند المفسرين: ٣/٧٤، مكتب الاعلام الاسلامي في الحوزة العلمية /قم.

واستعمل القرآن الكريم وصف (المحكم والمتشابه) لكل ما ورد فيه، فهو:

١ ـ وَصَفَ آياته كلها بأنَّها محكمة، فقال تعالى: **﴿الر * كتاب أُحكمت آياته . . .﴾**.

ومعنى الإحكام الوارد في هذه الآية وأمثالها هو الضبط والاتقان، فلا شيء في آي القرآن غير محكم في لغته واسلوبه وبيانه ودقة معانيه، وانسجامه مع غيره من الآيات، وعدم تناقضه معها.

﴿لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾.

﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء . . .﴾.

٢ ـ وَصَفَ آياته كلها بالمتشابه، جاء ذلك بقوله تعالى **﴿الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً﴾** (١).

ويقصد بالتشابه هنا التماثل في الاتقان والبلاغة والأهداف والاتساق.

٣ ـ وصف القرآن آياته بأن فيها المحكم والمتشابه، بالمعنى الاصطلاحي الذي حدَّده العلماء. جاء هذا الوصف في قوله تعالى: **﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هُنَّ أُم الكتاب وأُخر متشابهات فأمّا الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم يقولون آمّنا به كل من عند ربّنا وما يذّكر إلّا أولوا الألباب﴾** (٢).

---

(١) سورة الزمر، الآية ٢٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٧.

ومن خلال تعاريف العلماء ودراساتهم للمحكم والمتشابه نـعرف دلالة هذه الآية ، وماذا يعني المحكم والمتشابه الواردان فيها ؟ ولمـاذا كانت هناك آيات متشابهة ، ولم تكن جميعها محكمة بهذا المعنى ؟

لماذا المتشابه في القرآن:

اتضح لنا أن القرآن كله كتاب محكم في المبنى والمعنى ، في الشكل والمضمون ، سواء ما سمي منه محكماً ، أو ما اطلق عليه اسم المتشابه . وعرّفنا المقصود بالمتشابه بأنّه الآي الذي يصعب تشخيص مصداقه في العالم الخارجي ، كما يذهب الشهيد الصدر ، رضوان الله عليه الى ذلك ، ومفسرون آخرون .

وقد يورد البعض سؤالاً لماذا كـان المـتشابه فـي القـرآن ؟ . . أليس القرآن كتاب بيان وهداية للبشرية ؟ أو ليس المـفروض أن يكـون كـله محكماً لاتشابه فـيه ؟ فـهو صـادر عـن خـالق الوجـود ، وهـو القـادر العليم .

ويجيب العلماء الباحثون على هـذا الاشكـال بأن الدّاعـي لوجـود المتشابه في القرآن ، هو مستوى قدرة الانسان على فهم الحـقائق التـي تحدث عنها القرآن في هذه الآيات ، وادراكـها أولاً . وحـقيقة القـضايا التي تحدّث عنها في تلك المواضع ثانياً .

فمثلاً تحدّث القرآن عن صـفات الله تـعالى ، وعـن عـوالم الغـيب المجرّدة عن الحسيات ، وعالم الممكنات المعهود لدى الانسان ، فعبّر

عنها باللفظ الذي يقرّب الفهم الى ذهنه ، فاستعمل كـلمة (العـرش) و (الكرسي) و (اليد) و (الغضب) و (المكر) و (السخط) و (الرضـا) عند وصفه للخالق سبحانه ، أو التعريف بـملكه وسـلطانه ، لتـقريب المعاني والحقائق الخارجية الى ذهن الانسان .

كما أنّ من أسباب وجود المتشابه فـي القـرآن ، هـو دعـوة العـقل البشري الى التـحري والبـحث ، وبـلورة الفـهم المـختلط ، ولأختبار الانسان في عقيدته وإيمانه ، فهو يواجه المحكم والمتشابه ، وهو مدعو الى فهم المتشابه على ضوء المحكم لأسباب لغـوية ، كـالمشتركات اللفظية ، وكاللجوء الى استعمال المجاز . .

وثبّت أئمة أهل البيت عليهم السلام المنهج السليم لفهم المتشابه ، فـقد ورد عن الامام الصادق عليه السلام : « من ردَّ متشابه القرآن الى محكمه فقد هدي الى صراط مستقيم » .

فمن المحكمات مثلاً قوله تعالى : ﴿**ليس كمثله شيء . . .**﴾ وقوله تعالى : ﴿**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار**﴾ .

فيرد المتشابه في صفات الله تعالى اليها كقوله تعالى : ﴿**يد الله فوق أيديهم**﴾ وقوله : ﴿**وسع كرسيه السماوات والأرض**﴾ .

وقوله تعالى : ﴿**وجوه يومئذ ناضرة الى ربـها نـاظرة**﴾ . فـتفسير كلمة (ناظرة) بالراجية المنتظرة للـعطاء بـعد ردّهـا الى قـوله تـعالى : ﴿**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار**﴾ .

ينهي ماقد يتوهمه البعض من التجسيم ورؤية الله بالبصر البشري .

علاقة السنة بالقرآن

السنة النبوية : «هي اسم يطلق على كل ما صدر عن النبي من قول أو فعل أو تقرير»[1].

إن من الأسس الاعتقادية التي أوضحها القرآن للبشرية أن كل ما صدر عن النبي ﷺ هو عن الله سبحانه ، فسنة الرسول ﷺ هي متلقاة من الله جل ثناؤه ، متلقاة بمعناها دون لفظها ، فهي وحي كالقرآن . غير أن القرآن موحى بلفظه ونظمه ومعناه ، وهي موحاة بمعناها .

جاء هذا البيان في قوله تعالى : **﴿وما ينطق عن الهوى * إن هو إلّا وحي يوحى * علمه شديد القوى﴾** وفي قوله تعالى : **﴿ماآتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾** وفي قوله تعالى : **﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾** .

وواضح أن الرسول الكريم هو المخاطب بالقرآن ، وهو العالم بما حوى من علم وشريعة وهدي ، والعارف بتفسيره وتأويله ، والمكلف ببيان مجملاته وغوامضه ، وما انطوت عليه أعماقه وإيحاءاته .

---

(١) الشهيد الصدر ، دروس في علم أصول الفقه : الحلقة الأولى ص ٨٢.

نقرأ تلك الحقيقة في قوله سبحانه :

﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل اليهم ﴾

﴿ وما نزلنا عليك الكتاب إلاّ لتبين لهم الذي فيه يختلفون ﴾ .

ولقد قام الرسول ﷺ بأداء هذه المهمة ، وبيّن للناس ما بُلِّغ به من خلال القول والفعل والتقرير .

فقد فسَّر الرسول الكريم محمد ﷺ القرآن بقوله وفعله وتقريره .

ولقد استقرأ العلماء موارد علاقة السنة بالكتاب وبحثوها بحثاً مفصلاً في علم أصول الفقه ، كجزء من منهج الاستنباط من الكتاب ، وهي :

١ ـ ان السنة تبين مجمل الكتاب .

٢ ـ ان السنة خصصت عموم الكتاب .

٣ ـ ان السنة قيّدت مطلق الكتاب .

٤ ـ ان السنة لها قوة نسخ الكتاب .

التطبيق :

١ ـ السنة تبين مجمل الكتاب : من الأمور الواضحة لدى الجميع أن الكثير مما جاء في القرآن من الصلاة والزكاة والصوم والحج . . . الخ جاء مجملاً غير مفصَّل .

وقد قام الرسول الكريم ﷺ ببيان تلك المجملات وتفصيلها ، فعلَّم الناس كيفية الصلاة والصوم والزكاة والحج بكامل تفاصيلها

من خلال البيان اللفظي والتطبيقي الذي مارسه بسيرته العملية ، وبذا بين للأمة تفاصيل القضايا المجملة .

عرّف المحقق الحلي المجمل بأنه : « ما أفاد شيئاً من جملة أشياء ، هو معيَّن في نفسه ، واللفظ لا يُعيِّنهُ »[1] .

ثم قال : (والضابط فيه : أن كل ما لا يستقل بنفسه في معرفة المراد به فهو مجمل)[2] .

وعرَّفه الفقيه الراحل الشيخ محمد رضا المظفر بقوله : « عرَّفوا المجل اصطلاحاً : بأنه ما لم تتضح دلالته ، ويقابله المبيَّن »[3] .

ثم قال : « والمقصود من المجمل على كل حال ، ما جهل فيه مراد المتكلم ومقصوده إذا كان لفظاً ، وما جهل فيه مراد الفاعل ومقصوده إذا كان فعلاً . . . » ومن ثم قال : « ومن هذا البيان نعرف أن المجمل يشمل اللفظ والفعل » ثم استرسل في الحديث عن الأمثلة المجملة من الآيات فأورد قوله تعالى : **﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾** ثم بين أن لفظ اليد المقصود قطعها هنا هي من المجملات .

وللايضاح نختصر هذا البيان بين يدي القارئ : قال : « وأمّا من ناحية ـ اليد ـ فانّ الظاهر أن اللفظ لو خلي ونفسه يستفاد منه إرادة تمام العضو المخصوص ، ولكنه غير مراد يقيناً في الآية فيتردد بين المراتب

---

(١) معارج الأُصول ، المحقق الحلّي : ص١٠٥ .

(٢) المصدر السابق : ص١٠٦ .

(٣) أصول الفقه : ١/١٧٩ .

العديدة من الأصابع الى المرفق ؛ لأنه يعد فرض عدم إرادة تمام العضو لم تكن ظاهرة في واحدة من هذه المراتب . فتكون الآية مجملة في نفسها من هذه الناحية . وإن كانت مبيَّنة بالأحاديث عن آل البيت عليهم السلام الكاشفة عن إرادة القطع من أصول الأصابع »[1] .

وهكذا تبين السنة مجمل الكتاب ، وتوضح مراد القرآن من اليد في هذه الآية .

٢ ـ *ان السنة تخصص عموم الكتاب* : عرَف المحقق الحلي العام بقوله : « هو المستغرق لجميع ما يصلح له إذا أفاد في الكل فائدة واحدة »[2] .

إنَّ الأحكام الشرعية والقوانين الاسلامية حسب متعلقاتها والقضايا التي تنظِّمها تنقسم الى قسمين : أحكام عامة ، وأحكام خاصة . فكثيراً ما تأتي الأحكام بصيغة عامة ، ثم يأتي التخصيص ، وهو اخراج مساحة محدودة من تلك المساحة الكلية بتشريع أحكام خاصة بها دون بقية أفراد ذلك العموم ، ونجد ذلك واضحاً في الأحكام التي جاء بها القرآن الكريم . فقد جاء بأحكام عامة تشمل الأفراد المتماثلة ، ثم أخرج بعض الأفراد واستثناها من الحكم العام بحكم آخر .

ووفق منطق التشريع وعرفه فإن الخاص يقدَّم على العام ، اذا ما تعارضا . إذ يعتبر الخاص قرينة مفسرة لأرادة المشرع ، ويخصص

---

(١) أصول الفقه : ١/١٧٩ ـ ١٨١ .

(٢) معارج الأصول : ص ٨١.

القرآن بالقرآن، كما يخصص بالسنة، ومثال ذلك عموم قوله تعالى: **﴿فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب﴾** فخصص بقوله تعالى: **﴿حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾**.

وتخصيص الكتاب بالسنة هو مما أجمع عليه المسلمون بمختلف مذاهبهم وآرائهم.

ومن الأمثلة على عموم القرآن المخصص بالسنة هو قوله تعالى: **﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين...﴾**[1].

فإن هذه الآية شرّعت حكماً عاماً ينص على أن الأبناء يرثون الآباء بصورة عامة غير أن السنة النبوية أخرجت القاتل من هذا العموم بقول الرسول الكريم ﷺ «القاتل لا يرث»[2].

وعمم القرآن حكم تحريم الربا بقوله تعالى: **﴿وأحل الله البيع وحرّم الربا﴾** وقام الرسول بتخصيص هذا العموم بقوله ﷺ: «ليس بيننا وبين أهل حربنا رباً، نأخذ منهم ألف ألف درهم بدرهم، ونأخذ منهم ولا نعطيهم»[3].

وهكذا خصصت السنة عموم الكتاب، والأمثلة على ذلك كثيرة، وهذا المبحث هو من المباحث المهمة في علم أصول الفقه، وللعلماء المختصين دراسات تفصيلية في ذلك.

---

(١) سورة النساء، الآية ١١.

(٢) يراجع المحقق الحلي، معارج الاصول: ص٩٥.

(٣) الحرّ العاملي، وسائل الشيعة: كتاب التجارة، أبواب الربا، باب ٧ الحديث ٢.

كما يذهب الشيعة الإمامية الى تخصيص الكتاب بالسنة ، يذهب أصحاب المذاهب الأُخرىٰ الى ذلك أيضاً ، نذكر مثالاً على ذلك ما قاله الآمدي الحنبلي : (يجوز تخصيص عموم القرآن بالسنة)[1] .

ويستدل على ذلك بقوله : (وخصوا قوله تعالى ﴿**يوصيكم الله في أولادكم**﴾ بقوله ﷺ « لا يرث القاتل ، ولا يرث الكافر من المسلم ، ولا المسلم من الكافر »[2] .

التخصيص بخبر الآحاد: قسم العلماء الروايات الصادرة عن الرسول ﷺ والأئمة عليهم السلام حسب سندها ـ الى رواية آحاد ، واخرى متواترة ، وانتهوا في هذا التقسيم الى أن المتواتر يفيد القطع في حين خبر الآحاد يفيد الظن ، ثم أثيرت مشكلة علمية ، وهي هل يمكن أن يخصص عموم القرآن بالسنة المروية عن طريق الآحاد ؟ فالعام يخصص تارة بدليل قطعي ، وأُخرى يرد دليل ظني من السنة يفيد تخصيص العام . وهو خبر الآحاد فهل يُخصَّص العام القرآني بخبر الآحاد الثقة . اختلف العلماء في إمكان تخصيص الكتاب بخبر الآحاد .

فذهب المشهور ، كما أفاد السيد أبو القاسم الخوئي ، الى جواز تخصيص عموم الكتاب بخبر الآحاد .

---

(١) الأحكام في أصول الأحكام : ٢/٣٤٧ ، تحقيق د . سيد الجميلي .

(٢) المصدر نفسه : ص٣٤٨ . ذهبت الشيعة الإمامية الى أن الكافر لا يرث المسلم ، ويرث المسلم الكافر .

وخالف فيه فريق من علماء أهل السنة ، فذهب فريق منهم الى منعه مطلقاً ، وذهب فريق آخر الى اشتراط جواز التخصيص بأن يكون العام قد خص بدليل قطعي من قبل ، وذهب آخرون الى اشتراط أن يكون العام قد خص بدليل منفصل [١] .

ومن جملة ما أشكل به على عدم جواز تخصيص العام بخبر الآحاد أن خبر الآحاد ظني الصدور ، والقرآن قطعي الصدور ، وأن الأخبار تعرض على القرآن ، فما لم يوافق منها القرآن تسقط حجيته ، فكيف تقبل معارضة خبر الآحاد المخصص لعموم القرآن ، فيقدم عليه كقرينة مُفسِّرة ، فأجاب المجوزون أنّ التعارض هو بين خبر الآحاد الظني ، وبين ظواهر الكتاب ، والظواهر هي ظنيّة بحدُّ ذاتها . وبالتالي فانّ التعارض يكون بين دلالة الكتاب الظنية الموحي بها ظاهر اللفظ ، وبين دليل ظني ثبتت حجيته بدليل قطعي ما لم يكن هناك مانع يمنع من العمل به ، وانّ الدليل المخصص لعموم الكتاب لا يعني مخالفة الكتاب ، بل هو قرينة لايضاح المعنى المقصود من الدليل العام [٢] .

وذكر السيد أبو القاسم الخوئي وهو من أعاظم علماء الشيعة الامامية المعاصرين وصاحب مدرسة وآراء أصولية أن ما يذهب إليه المشهور هو المختار (جواز تخصيص عموم الكتاب بخبر الآحاد) [٣] .

---

(١) ذلك لأن المخصص تارة يكون متصلاً بالعام وأخرى منفصلاً عنه .

(٢) السيد ابو القاسم الخوئي ، البيان : ص ٤٢٦ .

(٣) البيان في تفسير القرآن : ص ٤٢٤ .

٣ ـ *السنة تقيد مطلق الكتاب:* عرَّف الفقيه الأصولي الشهيد الصدر الأطلاق والتقييد بقوله: «الاطلاق يقابل التقييد، فان تصورت معنى ولاحظت فيه وصفاً خاصاً أو حالة معيّنة، كان ذلك تقييداً، وإن تصورته بدون أن تلحظ معه أي وصف أو حالة أخرى كان ذلك اطلاقاً، فالتقييد إذن هو لحاظ خصوصية زائدة في الطبيعة، والأطلاق عدم لحاظ الخصوصية الزائدة»[1].

وواضح أن المعاني القرآنية كما ورد بعضها مطلقاً، ورد بعضها مقيَّداً.. وكما تقيِّد الآية إطلاق آية أخرى، فان السنة تقيد اطلاق الآيات أيضاً، كما تخصص عموماتها، والرسول ﷺ عندما يخصص ويقيِّد إنما هو مبيِّن لمحتوى الكتاب، ومبلغ عن الله تعالى.

ويبيّن العلماء المختصون «أنّ خبر الآحاد المستجمع لشرائط الحجية، كما يخصص عموم القرآن، فانَّه يقيِّد مطلقه أيضاً، ولا يغير هذا التقييد مما يخالف الكتاب، بل هو مما يوضِّح المراد منه.

ذكر ذلك السيد أبو القاسم الخوئي ؒ في كتابه البيان: «...إنّ الخبر المخصص للكتاب، أو المقيِّد له، حجة في نفسه، ويلزم العمل به إلّا حين يبتلي بالمعارض»[2].

السنة ونسخ القرآن: قد اتضح لنا مما سبق من البحث معنى النسخ في اللغة والاصطلاح، واتّضح أيضاً أن القرآن ينسخ بالقرآن. كما

---

(١) الحلقة الثانية: ص ٤٢٠.

(٢) البيان في تفسير القرآن: ص ٤٢٦.

بحث العلماء امكانية نسخ القرآن بالسنة ، ونريد هنا أن نعرِّف بهذا الموضوع . وقبل الدخول في التعريف نوضح أن الناسخ لكي يكون حجة يجب أن يكون قطعياً ، إذ لا حجة فيه إن كان ظنياً ، كما يقول العلماء ، والأصل كما يجمع الفقهاء من مختلف المذاهب ، هو عدم النسخ عند الشك في النسخ .

واختلف علماء الاسلام في جواز نسخ القرآن بالسنة ، فذهب بعضهم الى إمكان نسخ الكتاب بالسنة ، وذهب آخرون الى عدم جوازه ، وفيما يلي ننقل بعضاً من هذه الآراء .

قال الزركشي : «واختلف في نسخ الكتاب بالسنة ، قال ابن عطيّة : مذاق الأمة على الجواز ، وذلك موجود في قوله ﷺ : «لا وصية لوارث» وأبىٰ الشافعي ذلك . والحجة عليه من قوله في اسقاط الجَلد في حدِّ الزنا عن الثيّب الذي رجم ، فإنّه لا مسقط لذلك إلّا السنة ، فِعْل النبي ﷺ .

قلنا : أمّا آية الوصية فقد ذكرنا أن ناسخها القرآن ، وأمّا ما نقله عن الشافعي فقد اشتهر ذلك لظاهر لفظ ذكره (الرسالة) ، وإنما مراد الشافعي أنّ الكتاب والسنة لا يوجدان مختلفين إلّا ومع أحدهما مثله ناسخ له ، وهذا تعظيم لقدر الوجهين وإبانة تعاضدهما وتوافقهما ، وكل من تكلم على هذه المسألة لم يفهم مراده ...»[1] .

---

(١) البرهان في علوم القرآن : ٢/٣٧ ـ ٣٨.

وتذهب الشيعة الامامية الى جواز نسخ القرآن بالسنة المتواترة أو الاجماع القطعي الكاشف عن صدور النسخ عن المعصوم عليه السلام وهذا القسم من النسخ لا اشكال فيه عقلاً ونقلاً»[1].

وجدير ذكره أن المعصوم المقصود هنا هو الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وآله فالسنة النبوية هي التي لها قوة نسخ القرآن.

وقد مرّ بنا قول الفقيه الشهيد الصدر: «إن تغيير أحكام الشريعة عن طريق النسخ يكون أيضاً أحد العوامل المستوجبة للتعارض بين الأحاديث والنصوص، ولكن التعارض على أساس هذا العامل تنحصر دائرته في النصوص الصادرة عن النبي صلى الله عليه وآله ولا تعم النصوص الصادرة عن الأئمة عليهم السلام؛ لما ثبت في محله من انتهاء عصر التشريع بانتهاء عصر النبي صلى الله عليه وآله وأن الأحاديث الصادرة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام ليست إلّا بياناً لما شرعه النبي صلى الله عليه وآله من الأحكام وتفاصيلها»[2].

ومما ينبغي ايضاحه هنا هو أن الشيعة الامامية لم يثبت لديهم حكم قرآني منسوخ بصورة فعلية بالسنة النبوية. وإنما قالوا بامكان نسخ الكتاب بالسنة فقط؛ ذلك لأن ما يفعله الرسول صلى الله عليه وآله هو بأمر الله تعالى وصادر عنه سبحانه.

---

(١) السيد أبو القاسم الخوئي، البيان في تفسير القرآن: ص ٣٠٥.

(٢) تعارض الأدلة: السيد محمود الهاشمي، ص ٣٠.

ملحق

منهج المعرفة في القرآن الكريم

من قراءة وتحليل المعرفة الإنسانيّة، ونظم التفكير، ومناهج البحث في مجال الطبيعة والفكر والمجتمع والعقيدة والشريعة التي أفرزها الفكر الإسلامي نستنتج أن منهج البحث والتفكير ومصدر المعرفة وأدوات الفهم والاستنباط هي المسؤولة بشكل أساس مسؤولية علميّة عن تعدد الآراء والأفكار والمفاهيم في إطار المعرفة الإسلامية بالاضافة الى قصور الباحث العلمي، وهوى النفس، وتدخل العامل الذاتي في البحث الموضوعي، وتلك العوامل مجتمعة هي المسؤولة عن مستوى نتائج البحث من حيث الصحة والأصالة والخصوبة والنضج ... الخ.

ونحن عندما ندرس البنية المنهجية للفكر الإسلامي نجد أثر المنهج؛ واضحاً في كل حقل من حقول المعرفة.

لذا نجد أثر هذا المنتظم المنهجي واضحاً في بنية المعرفة وصياغة شخصيتها، وتقرير نتائج العمل العقلي فيها. فما من مدرسة فكرية إلّا

وانطلقت من تحديد مصادر المعرفة أولاً ، ومن تثبيت أساس للتفكير ، ومنهج متميز في البحث وتقرير النتائج ثانياً ؛ وبذلك يتحدد عمقها وتتشخص أصالتها وانتماؤها .

ومن الواضح تأريخياً أنّ الفكر الإسلامي قد تفاعل مع أفكار الشعوب والأمم الأُخرى من خلال الاختلاط والفتوحات والترجمة ، فتفاعل مع الفكر اليوناني والفارسي والهندي والصيني واليهودي والمسيحي المحرّفين ، فأفرز هذا التفاعل نتائج انحرافية بالأضافة الى محاولات التحريف الداخلية التي نشأت في داخل المجتمع الإسلامي وأثر ذلك كله في طريقة التفكير والمناهج المتعددة لدى كثير من أصحاب النظريات والفلسفات والاتجاهات الفكرية في المجتمع الإسلامي ، لاسيما أصحاب المناهج الفلسفية والكلامية والسلوكية .

وكما أثر الفكر الأجنبي الوافد أثره في الاتجاه المنهجي ، أثَّر القصور العلمي وضيق الأفق الفكري في إفراز مناهج وطرق تفكير عقيمة ، وغير منتجة أحياناً . وقاصرة عن فهم الرسالة ، وتطوير الفكر والبحث العلمي ، وتنمية العلم والمعرفة في مجال الطبيعة ، والمجتمع ، والشريعة ، ونظم التفكير أحياناً أُخرىٰ .

وفي خضم هذا الصراع المنهجي ، ونظم التفكير ، كانت مدرسة أئمة أهل البيت عليهم السلام تواصل جهادها الفكري والسياسي لتثبيت معالم منهج البحث والتفكير ، والفهم الإسلامي ، للنص والمحتوى ، وطريقة الحياة ، كما تلقاه أئمة أهل البيت عليهم السلام من كتاب الله ، وسنّة نبيّه

الكريم ﷺ ، فاكتسب هذا المنهج تأصيلاً قرآنياً ، وميزة علمية واقعية ، فكان منهجاً يحترم العقل ، ويلتزم بقواعد الشرع ، ويسعى لتطوير الحياة العلمية بشِقَّيها المادي والإنساني .

المصادر الأُولى للمعرفة الإنسانية :

ومن دراسة وتحليل المعرفة البشرية المعقَّدة بنظرياتها وقوانينها ومسلماتها ، نجد الفكر الإسلامي يرجعها الى مسلمات أساسيّة قد حصل عليها الفكر الإنساني من مصادر أساسية للمعرفة فشكَّلت تلك الأُسس والمسلّمات بُنية العقل والتفكير المسلم ، وأعطته ميزته وصفته الخاصَّة به .

والذي سنعرضه هنا هو رؤية مدرسة أهل البيت عليهم السلام للمعرفة الإنسانية ، مستفادة من المنهج القرآني ، والذي اختلفت فيه مع مدرسة الأشاعرة التي تبنَّت معظم المذاهب الفقهية الإسلامية الأُخرى آراءها في مجال الفكر والعقيدة ، والمسلمات الكبرى في صياغة العقل المسلم ، والتفكير الإسلامي .

وقد بنى الفهم الإمامي نظريته في المعرفة على أساس واقعي متسق مع منطق القرآن ، فأعطت هذه النظرية العقل دوره الفاعل ، كما أعطت المسلمات الواقعية في عالم الوجود قيمتها ، وأثرها في تفسير حوادث الطبيعة ، والنفس ، والمجتمع ، والتأريخ .

فقد بنىٰ هذا الفكر النظرية الإسلامية في المعرفة على أساس تشخيصه لمصادر المعرفة الأساسية للإدراك البشري الذي انتهى الى

الإيمان بأنّ الحس هو مصدر المعرفة الأُولى ، وأنّ المعلومات الحسيّة الوافدة على العقل البشري من العالم المحيط به عن طريق الحواس يتناولها العقل فيدركها ، ويستنتج منها ، ويبني عليها .

ولنقرأ أفكار العلّامة الحلي ، وهو يثبّت أُصول المعرفة الإنسانية التي أرجعها الى المعلومات الحسيّة ، قال ﷺ : «إعلم أنّ الله خلق النفس الإنسانية في مبدأ فطرتها خالية من جميع العلوم بالضرورة ، قابلة لها بالضرورة * ، وذلك مشاهد في حال الأطفال . ثم إنّ الله تعالى خلق للنفس آلات بها يحصل الإدراك ، وهي القوىٰ الحساسة ، فيحس الطفل في أول ولادته بحس ولمس مايدركه من المعلومات ، ويميز بواسطة الإدراك البصري ، على سبيل التدريج بين أبويه وغيرهما وكذلك يتدرج في الطعوم وباقي المحسوسات الى إدراك مايتعلق بتلك الآلات ، ثم يزداد تفطنه فيدرك بواسطة إحساسه بالأُمور الجزئية ، الأُمور الكلية المشاركة والمباينة ، ويعقل الأُمور الكلية الضرورية بواسطة إدراك المحسوسات الجزئية ، ثم إذا استكمل الاستدلال وتفطن بمواضع الجدال ، أدرك بواسطة العلوم الضرورية ، العلوم الكسبية .

فقد ظهر من هذا أنّ العلوم الكسبية فرع على العلوم الضرورية الكلية ، والعلوم الضرورية الكلية فرع على المحسوسات الجزئية ،

(*) في نسخة قابلة لها .

فالمحسوسات إذن هي أصول الاعتقادات ، ولا يصح الفرع إلّا بعد صحة أصله ؛ فالطعن في الأصل طعن في الفرع ...»[1] .

ويتحدث الشهيد الصدر عن هذه النظرية بشيء من الإيضاح والتفصيل فيقول متحدثاً عن نظرية الفلاسفة الإسلاميين (نظرية الانتزاع) :

«وتتلخص هذه النظرية في تقسيم التصورات الذهنية الى قسمين هما : تصورات أولية ، وتصورات ثانوية ، فالتصورات الأولية هي الأساس التصوري للذهن البشري ، وتتولد هذه التصورات من الإحساس بمحتوياتها بصورة مباشرة ، فنحن نتصور الحرارة لأننا ندركها باللمس ، ونتصور اللون لأننا أدركناه بالبصر ، ونتصور الحلاوة لأننا أدركناها بالذوق ، ونتصور الرائحة لأننا أدركناها بالشم .

وهكذا جميع المعاني التي ندركها بحواسنا ، فإنّ الإحساس بكل واحد منها هو السبب في تصوره ووجود فكرة عنه في الذهن البشري ، وتتشكل من هذه المعاني القاعدة الأولية للتصور ، وينشئ الذهن بناء على هذه القاعدة التصورات الثانوية ، فيبدأ بذلك دور الابتكار والإنشاء .

وهو الذي نصطلح عليه بلفظ (الانتزاع) فيولد في الذهن مفاهيم جديدة من تلك المعاني الأولية .

---

(١) نهج الحق وكشف الصدق : ص ٤٠ .

وهذه المعاني الجديدة خارجة عن طاقة الحس ، وإن كانت مستنبطة ومستخرجة من المعاني التي يقدمها الحس الى الذهن والفكر .

وهذه النظرية تتسق مع البرهان والتجربة ، ويمكنها أن تفسِّر جميع المفردات التصورية تفسيراً متماسكاً ، فعلى ضوء هذه النظرية نستطيع أن نفهم كيف انبثقت مفاهيم العلة والمعلول والجوهر والعرض والوجود والوحدة في الذهن البشري ، إنها مفاهيم انتزاعية يبتكرها الذهن على ضوء المعاني المحسوسة ، فنحن نحس مثلاً بغليان الماء حين تبلغ درجة حرارته مأة ، وقد يتكرر إحساسنا بهاتين الظاهرتين ـ ظاهرة الغليان والحرارة ـ آلاف المرات ، ولا نحس بعلية الحرارة للغليان مطلقاً . وإنّما الذهن هو الذي ينتزع مفهوم العليّة من الظاهرتين اللتين يقدمها الحس الى مجال التصور »[1] .

وهكذا تنتهي هذه النظرية الى أنّ هناك :

١ ـ معارف أولية (حسيّة) .

٢ ـ معارف عقلية انتزاعية[2] .

وإذا كان هذا تحليل ودراسة الفكر الإسلامي وفق الفهم العقلي والفلسفي ، فلنبحث عن أصوله القرآنية ، وجذوره في معارف الوحي ، لنعرف الأصالة والمنهجية القرآنية في هذه النظرية . وإذا شئنا تأصيل النظرية فسنجد أنّها أسست ، واستمدت مقوماتها من الآية الكريمة :

---

(١) الشهيد المفكر الإسلامي الكبير محمد باقر الصدر ، فلسفتنا : ص٦٨ .

(٢) المصدر السابق .

﴿والله أخرجكم من بطون أُمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾ [1]

فهذه الآية هي الأساس العلمي لهذه النظرية ، والمؤيّدة للمصادر الحسية للمعرفة ولاكتشاف العقل وتشخيصه للأسس الأولى للمعرفة البشرية .

وإذن فلنقرأ تفاسير هذه الآية كما بينها أساطين الفكر الإمامي .

قال الشيخ الطوسي مفسراً هذه الآية : « تفضل عليكم بالحواس الصحيحة التي هي طرق العلم بالمدركات . وجعل لكم قلوباً تفقهون بها ، لأنها محل المعارف »[2] .

وفسّر الشيخ محمد رضا القمي المشهدي ، وهو من علماء القرن الثاني عشر الهجري هذه الآية بقوله : « ... أداة تتعلمون فتحسون بمشاعركم جزئيات الأشياء فتدركونها ، ثم تتنبهون بقلوبكم لمشاركات ومباينات بينها بتكرير الإحساس حتى تتحصل لكم العلوم البديهية ، وتتمكنوا من تحصيل المعارف الكسبية بالنظر فيها »[3] .

أمّا المفسر الفيلسوف العلّامة الطباطبائي فيقول في تفسير هذه الآية : « والآية تؤيد ماذهب اليه علماء النفس من أن لوح النفس خالية عن المعلومات أوّل تكونها ، ثم تنتقش فيها شيئاً فشيئاً ـ كما قيل ـ وهذا

---

(١) سورة النحل : الآية ٧٨.

(٢) التبيان : تفسير الآية ٧٨ سورة النحل .

(٣) كنز الدقائق وبحر الغرائب : تفسير الآية ٧٨ سورة النحل .

في غير علم النفس بذاتها ... ثم قال : وقوله : ﴿**وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ...**﴾ إشارة الى مبادئ العلم الذي أنعم بها على الإنسان ، فمبدأ التصور هو الحس . والعمدة فيه السمع والبصر ، وإن كان هناك غيرهما من اللمس والذوق والشم ، ومبدأ الفكر هو الفؤاد * »[1] .

وهكذا تتضح أُسس نظرية المعرفة في الفكر الإسلامي كما فهمتها مدرسة أهل البيت عليهم السلام بأنّها نظرية مرتكزة على أساس قرآني .

فقد آمنت هذه المدرسة ـ كما صورها العلّامة الحلي والشهيد الصدر وجمع من المفسرين ـ بأصالة المعرفة الحسيّة ليأتي دور العقل فينتزع من المعلومات الجزئية الحسيّة ، المعارف الضرورية الكلية التي تسلك كأساس للبحث والتفكير في العلوم التحصيليّة كلها ، وبمختلف مباحثها وموضوعاتها .

وبذا اكتسب منهج البحث الإسلامي قيمته الواقعية والعلمية .

وإذا كان المرتكز الأول من مرتكزات نظرية المعرفة هو أن المعارف الحسيّة هي أصل المعرفة ، وأن العقل البشري ينتزع منها المعارف الأخرى ، كمبدأ العليّة الناتج عن عملية الاستقراء في هذا العالم بما يزخر به من ألوان الموجودات ، فانّ المرتكز الثاني من مرتكزات نظرية

(*) الفؤاد : القوة المدركة ، قال الراغب الإصفهاني في معجم المفردات : « الفؤاد كالقلب ، لكن يقال له فؤاد إذا اعتبر فيه التفؤد . أي التوقد » .

(١) الميزان في تفسير القرآن : تفسير الآية ٧٨ سورة النحل .

المعرفة التي آمنت بها مدرسة أهل البيت عليهم السلام وأصّلتها على أساس المنهج القرآني هو الايمان بمبدأ العلية (العلة الفاعلة والعلة الغائية) في هذا الوجود بأسره ، فقد آمنت مدرسة أهل البيت بأنّ العالم الطبيعي والفكري والاجتماعي كله خاضع لقانون السبب والنتيجة ، أو مبدأ العليّة . كما أن الوجود بأسره قائم على اساس مبدأ العلة والمعلول .

وأن هذا المبدأ كما يساهم في تشكيل عقل علمي ، فإنّه يقود العقل أيضاً الى البحث عن علل الوجود ، وقانون الفكر والطبيعة والمجتمع ، ويضفي على البحث والتفكير الصفة العلمية والواقعيّة .

ولا تخفى على المفكر والباحث العلمي قيمة هذه النظرية ونتائجها التطبيقية في اكتشاف قوانين الطبيعة ، والربط بين التفكير والمعرفة . والإيمان بقوانين علمية تُسيِّر حركة التاريخ والمجتمع ، وتنظم السلوك وعلاقات الإنسان .

ولنقرأ إيضاح الشهيد الصدر لمبدأ العليّة في عالم الفكر والطبيعة والمجتمع ، فقد كتب رحمه الله يقول : « إنَّ من أوليّات مايدركه البشر في حياته الاعتيادية مبدأ العلية القائل أنّ لكل شيء سبباً ، وهو من المبادئ العقلية الضرورية . . . »[١] .

ثم يسترسل في شرح هذه النظرية فيوضح عدداً من المرتكزات والاستنتاجات المرتبطة بمبدأ العليّة التي تسلك كأساس للعلم

---

(١) فلسفتنا : ص٣٠٢ .

والمعرفة البشرية بشتى فروعها فيقول : «من الضروري أن نشير الى عدة قوانين من المجموعة الفلسفية للعليّة التي يرتكز عليها العلم ، وهي كما يلي :

١ ـ مبدأ العليّة القائل : إنّ لكل حادثة سبباً .

٢ ـ قانون الحتمية القائل : إنّ كل سبب يُولِّد النتيجة الطبيعية بصورة ضرورية ، ولا يمكن للنتائج أن تنفصل عن أسبابها .

٣ ـ قانون التناسب بين الأسباب والنتائج القائل : إنّ كل مجموعة متفقة في حقيقتها ، من مجاميع الطبيعة يلزم أن تتفق أيضاً في الأسباب والنتائج »[١] .

ثم يوضح قيمة مبدأ العليّة العلمي فيقول : «مبدأ العليّة هو الركيزة التي عليها جميع محاولات الاستدلال ، في كل مجالات التفكير الإنساني ؛ لأنّ الاستدلال على شيء من الأشياء ، يعني أنّ الدليل إذا كان صحيحاً ، فهو سبب للعلم بالشيء المستدل عليه ، فحين نبرهن على حقيقة من الحقائق بتجربة علمية ، أو بقانون فلسفي ، أو بإحساس بسيط ، إنّما نحاول بذلك أن يكون البرهان علة للعلم بتلك الحقيقة ، فلولا مبدأ العليّة والحتمية ، لما أُتيح لنا ذلك . . . »[٢]

وجدير ذكره أنّ المذهب الأشعري قد أنكر مبدأ العليّة والسببية في

---

(١) المصدر السابق : ص٣٠٥ .

(٢) المصدر السابق : ص٣٠٨ .

هذا الوجود مسلماً بعلة واحدة ، وهي الله سبحانه . وفسر ظاهرة العلاقة والترابط بين حدوث الأشياء بالعادة ورفض الايمان بمبدأ التوالد العلّي ، ظناً منه أنّ هذا الايمان يخالف عقيدة التوحيد ، في حين تذهب مدرسة أهل البيت ﷺ الى أنّ الايمان بمبدأ تعدد الأسباب والعلل وتسلسلها دليل آخر على توحيد الله وتجلي عظمته ، ورجوع الأسباب والعلل الى مشيئته وقدرته .

والقرآن الكريم قد ثبت مبدأ العليّة أو السبب والنتيجة كلما تحدث عن الفكر والطبيعة والمجتمع ، بل وعرضها كوحدة سببيّة يرتبط بعضها ببعض ، ويؤثّر بعضها في البعض الآخر .

العليّة والتفكير :

ففي مجال الفكر تحدث القرآن عن أنّ التفكير سبب مباشر للمعرفة ، وعلّة لها . وأوضح أنّ العلاقة بين التفكير والمعرفة هي علاقة السبب بالنتيجة .

فقد خاطب العقل والفكر البشري ودعاه الى أن يستقرئ عوالم الطبيعة والحياة ليكتشف من خلالها وجود الخالق وعظمة قدرته . كما وجه العقول الى التفكر في تجارب الأمم السابقة ليكتشف العلاقة بين سقوطها واندثار حضارتها وبين الكفر والجريمة والانحراف .

فعلى الصعيد الأوّل نقرأ عليّة التفكير للعلم والمعرفة ، قال تعالى : **﴿إنّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي**

الألباب* الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾ (١).

وقال تعالى: **﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجل مسمّى انّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾** (٢).

وهكذا يوضح القرآن أنّ التفكير علّة وسبب لانتاج المعرفة، فالتفكير في عالم الطبيعة والإنسان (استقراء مظاهر الوجود) يُولِّد الإيمان بوجود الخالق؛ لذا نجد الرسول الكريم ﷺ يؤكد هذه الحقيقة حين قال بعد نزول قوله تعالى: **﴿إنّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب . . .﴾**.

قال: «ويل لمن لاكها بين لحييه ثم لم يتدبرها» أي لم يكن من أُولي الألباب الذين يستنتجون وجود الله من التفكر في خلقه.

وان هذه المعادلة التفكيرية كما هي واضحة تجري على أساس الاختلاف بين موضوع المقدمة وموضوع النتيجة (الاختلاف بين جنس العلة وجنس المعلول).

فالمقدمة هي مايتوفر من معلومات حسيّة استقرائية عن هذا الوجود لدى الإنسان والنتيجة هي اكتشاف وجود خالق لهذا العالم.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩١ ـ ١٩٢.

(٢) سورة الزمر: الآية ٤٢.

وهذه المرحلة من التفكير هي المرحلة التي عبّر عنها الشهيد السعيد المفكر الإسلامي الكبير السيد محمد باقر الصدر بمرحلة التوالد الذاتي .

في حين نقرأ في كتاب الله قدرة التفكير البشري على توليد نتائج علمية جديدة من خلال حركته بين المعلوم والمجهول ، وقدرته على استنباطها وهي المرحلة التي أطلق عليها الشهيد الصدر اسم مرحلة التوالد الموضوعي للفكر . أو المرحلة الاستنباطية من الدليل الاستقرائي .

وقد أوضح المتكلمون الإماميّة قدرة التفكير على انتاج المعرفة ، وأنّ العلاقة بين التفكير والعلم هي علاقة السبب والنتيجة :

نذكر من هذه الآراء ماأورده أبو إسحاق إبراهيم النوبختي صاحب كتاب (الياقوت) الكلامي الشهير .

قال : « والنظر يولد العلم كسائر الأسباب المولدة لمسبباتها » .

ثمّ علق العلّامة الحلي على هذه الرأي قائلاً : أقول : اختلف الناس في ذلك ، فقالت المعتزلة : النظر الصحيح يولد العلم .

وقال الأشاعرة : إنّ العلم يحصل عقيبه لمجرد العادة من فعل الله تعالى كالعاديّات .

وقال أبو بكر الباقلاني ، وإمام الحرمين ـ الجويني ـ : «إنّ العلم مايلزم النظر لزوماً واجباً ، وإن لم يتولد عنه »[1] .

---

(١) العلّامة الحلي ، أنوار الملكوت في شرح الياقوت : ص ١٥ .

وهكذا نجد المدرسة الإمامية قد اختلفت مع المدرسة الأشعرية في عليّة التفكير للعلم ، واسندت نظريتها الى أصول قرآنية .

قانون العليّة وتفسير التاريخ والمجتمع :

وكما طبقت مدرسة أهل البيت مبدأ قانون العليّة على عالم الفكر والمعرفة طبقته كذلك في مجال حركة التاريخ والمجتمع فآمنت بقانون العليّة التأريخيّة والسنن الاجتماعية والأسباب في عالم المجتمع ، السياسي والاقتصادي والتحول الاجتماعي والسلوك الشخصي .

ولنقرأ قانون العليّة والسببيّة كما أوضحه القرآن وفهمته هذه المدرسة .

قال تعالى : **﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لايلبثون خلافك إلّا قليلا * سنّة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا﴾**[1] .

وقال تعالى : **﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾**[2] .

وقال تعالى : **﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لايجدون وليّاً ولا نصيراً سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾**[3] .

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٧٦ ـ ٧٧ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٣٧ .

(٣) سورة الفتح : الآية ٢٣ .

وقال تعالى : **﴿ذلك بأنّ الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا مابأنفسهم﴾** .

وهكذا يتحدث القرآن عن القانون التأريخي والاجتماعي أو السببية الاجتماعية والتأريخية ، فيربط بين الكفر بالله وجرائم الإنسان وانهيار الأمم والحضارات والأزمات الاقتصادية والسياسيّة والأوضاع النفسيّة . . . الخ .

فالقرآن يعرضها وحدة قانونيّة مترابطة .

وللتعرف على ذلك نقرأ بيان الشهيد الصدر ﷺ وتفسيره لقانون العليّة التأريخية كما أوضحه القرآن الكريم بعد أن استعرض عدداً من الآيات المتحدثة عن هذا القانون قال : (من مجموع هذه الآيات الكريمة يتبلور المفهوم القرآني الذي أوضحناه ، وهو تأكيد القرآن على انّ الساحة التأريخية لها سنن ، ولها ضوابط ، كما يكون هناك سنن وضوابط لكل الساحات الكونية الأخرى ، وهذا المفهوم القرآني يعتبر فتحاً عظيماً للقرآن الكريم . . لأننا في حدود مانعلم القرآن أوّل كتاب عرفه الانسان أكد على هذا المفهوم ، وكشف عنه ، وأصرّ عليه ، وقاوم بكل مالديه من وسائل الاقناع والتفهيم ، قاوم النظرة العفوية أو النظرة الغيبية الاستسلامية بتفسير الأحداث .

الانسان الاعتيادي كان يفسّر أحداث التأريخ بوصفها كومة متراكمة من الأحداث ، يفسّرها على أساس الصدفة تارة ، وعلى أساس القضاء والقدر والاستسلام لأمر الله سبحانه وتعالى .

القرآن قاوم هذه النظرية العفوية، وقاوم هذه النظرة الاستسلامية، ونبّه العقل البشري إلىٰ انّ هذه الساحة لها سنن، ولها قوانين، لكي تستطيع أن تتحكم فيها وإلّا تحكمت هي فيك وأنت مغمض العينين افتح عينك علىٰ هذه القوانين، أفتح عينيك علىٰ هذه السنن لكي تكون أنت المتحكم لا لكي تكون هذه السنن هي المتحكمة فيك»[1].

من ذلك كله فهم العقل الإسلامي قانون العليّة في مجاليه الاجتماعي والتأريخي من منهج القرآن الكريم، وفقاً للاتجاه المدرسي القائم على أساس الإيمان بقانون العليّة في الطبيعة والفكر والمجتمع الذي قالت به مدرسة أئمة أهل البيت عليهم السلام.

والإيمان بقانون العليّة الذي ثبّته القرآن الكريم لايعني انفصال الوجود عن خالقه، بل على العكس تماماً، إنّما تعمل الأنظمة القانونيّة والحركة السببيّة في العالم وفق ما أودع الله فيها من قانون ونظام يتصف بالعدل والحكمة والمصلحة للخلق.

وجرياً على هذا القانون فالإنسان يشكل علّة فاعلة لسلوكه وفعله الفردي والاجتماعي؛ لذا كان مسؤولاً عنه ومجازاً عليه.

ولقد طبّق علماء العقيدة قانون السببيّة في الحياة الاقتصادية.

ولنأخذ لذلك مثلاً تطبيقهم لهذا القانون على مستوى الأسعار في السوق التجارية، فذهبوا الى أنّ قانون العرض والطلب، والرغبة في

---

(١) المدرسة القرآنية: ص ٧١ـ٧٢.

الشيء ، وتدخل السلطة ، والظروف والأوضاع الطبيعية ، كلها عوامل تؤثّر في مستوى الأسعار .

قال الشيخ الصدوق محللاً قانون الأسعار في السوق : (الغلاء هو الزيادة في أسعار [1] الأشياء حتى يباع الشيء بأكثر مماكان يباع في ذلك الموضع ، والرخص هو النقصان في ذلك ، فما كان من الرخص والغلاء عن سعة الأشياء وقلتها فانّ ذلك من الله عزوجل ويجب الرضا بذلك والتسليم له . . .) [2] .

وهكذا يوضح الشيخ الصدوق قانون العرض والطلب وتأثيره على الأسعار كقانون علمي ثابت من فعل الله تعالى كقانون الطب والفيزياء ، رغم قدرة الإنسان على رفع الاسعار وخفضها .

وأوضح العلّامة الحلي قانون السببيّة ودوره في تحديد السعر (الرخص والغلاء) في السوق التجارية بسبب التدخل الإنساني فقال :

« وقد يحصلان من قبلنا بأن يحمل السلطان الناس على بيع تلك السلعة بسعر غالٍ ظلماً منه ، أو لاحتكار الناس ، أو لمنع الطريق خوف الظلمة ، أو لغير ذلك من الأسباب المستندة الينا ؛ فيحصل الغلاء ، وقد يحمل السلطان الناس على بيع السلعة برخص ظلماً منه ، أو يحملهم

---

(١) عرّف العلّامة الحلي السعر بأنّه : تقدير العوض الذي يباع به الشيء ، وليس هو الثمن ، ولا المثمن ، وهو ينقسم الى رخص وغلاء . كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد : ص ٣٤٢ .

(٢) التوحيد : ص ٣٨٩ ، دار المعرفة ـ بيروت .

على بيع ما في أيديهم من جنس ذلك المتاع فيحصل رخص»[1].

وهكذا يفسر الفكر الإسلامي مستوى الأسعار في السوق بقانون العرض والطلب، وبتدخل الإنسان، فيقنّن ماورد في الروايات من أنّ الله هو المسعّر، ويوضح دور الإنسان السببي في تحديد مستوى السعر في السوق التجارية، انطلاقاً من المنهج القرآني الذي عرض الوجود بأسره ضمن قانون العليّة والسببيّة.

وهكذا نفهم المنهجية العلمية في الفكر الاسلامي، وتأصيله لنظريّة المعرفة وتعميم تطبيقها في مجالات الفكر والنفس والطبيعة والمجتمع وفي ما وراء الطبيعة.. وذلك ما يكشف الأصالة العلميّة في آن واحد، كما يكشف البنية المنهجية المتماسكة في نظرية المعرفة وأثرها في عقيدة الانسان وسلوكه.

---

(١) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد: ص ٢٤٢.

من خلال ما تيسر لنا عرضه ، والتعريف به من قضايا تتعلق بالوحي ، وبجمع القرآن وصيانته ، وفهمه وتفسيره ، وما استعرضناه من آراء العلماء ، أن حفظ القرآن وتفسيره وتأويله قضية من أهم قضايا الفكر الاسلامي ، فلها الأثر الكبير في فهم المحتوى القرآني والاستنباط منه ، كما لها الأثر الكبير في عقيدة الانسان المسلم وإيمانه بما جاء في هذا الكتاب الالهي المقدس ، وبناء مجتمع المسلمين ، وإشادة حضارتهم . . فالفهم السليم الكاشف كشفاً علمياً عن المراد الالهي المستودع في هذا النص مسؤولية شرعية وأمانة علمية . . وانطلاقاً من هذه الخصيصة اهتم المسلمون بتفسير القرآن ، وتأليف العلوم والمعارف القرآنية ، كعلم القراءة والتفسير والتأويل ، ثم كان تأسيس منهج أصول الفقه بلورة علمية ، ونظرية متكاملة لتنظيم الفهم القرآني .

فقد بحث العلماء الوضع اللغوي ، وتركيب الجمل ، والأمر والنهي ، والعموم والخصوص ، والاطلاق والتقييد ، والمجمل والمبين ،

والمؤول والصريح، والمحكم والمتشابه، والسياق والقرائن، والنسخ، وحجية الظاهر، ودور العقل والاجماع وعلاقة السنة بالكتاب... الخ، ودرسوا كل هذه الأبحاث وغيرها بحثاً علمياً وتحليلياً لفهم النص القرآني، واكتشاف محتواه.. منطلقين في تأسيس هذه الدراسات من أحكام العقل واللغة، وأدلة القرآن والسنة، والعرف المقر من السنة؛ ليكون منهج فهم القرآن منهجاً علمياً، وبنية تفكرية متكاملة، وقائمة على أسس سليمة. كما حُددت المرجعية في فهم القرآن، ومنهج تفسيره، وفهمه وتأويله، على ضوء الكتاب والسنة.

كل ذلك ليكون التعامل مع القرآن تعاملاً علمياً لا تتلاعب به الأهواء والذاتية، ومحاولات التفسير العابثة.

جدير بالذكر أننا نواجه الآن محاولات من كتّاب علمانيين أو مشوشي الفهم والمنهج يتجهون الى محاولة إرباك الثقافة الاسلامية والفهم القرآني من خلال محاولات التقدم بطريقة لفهم القرآن غريبة عن المنهج العلمي، ولا تقود إلّا الى العبث بمفاهيمه. وقد أصدروا كثيراً من الكتب والأبحاث لدراسة النص، وتعرّضوا للدراسات الأُصولية وعلوم القرآن المتصلة بفهم النص تفسيراً وتأويلاً.. كما يتوجه الرد والنقد لهذه المحاولات التي تدعو الى تغيير منهج فهم القرآن الذي أسسه العلماء لضبط عملية الفهم والتفسير، كذلك يتوجه

النقد الى الفهم الشكلي والتوقفي وتجميد المحتوى القرآني بفرض العقلية المتوقفة عن الفهم ، ومثلها محاولة فرض الذاتية على الموضوعية القرآنية أو فرض ثقافة المفسر ومسلماته الفكرية الغريبة عن روح القرآن على النص القرآني . ومحاولة تطويع النص لما يريده المفسِّر . . إنّ كل تلك المحاولات تشكل خطراً على الفهم القرآني ، كما يشكل الكثير من التراث التفسيري والروايات الضعيفة والمدسوسة خطراً آخر على شروع فهم القرآن وتفسيره تفسيراً حقاً ، وهو التفسير المعبر عن مراد الله تعالى من كتابه ، والكاشف عن الخزين المستودع في نصوصه وروحه العامة .

إنّ من المسؤوليات الأساسيّة للعلماء والمفكرين الاسلاميين هو توفير فهم قرآني سليم والوقوف أمام محاولات التحريف ، أو تحويل القرآن الى شاهد مؤيد لما يريده أصحاب الآراء والأفكار الخارجة عن مراد القرآن . .

وكم هو عظيم قول الامام السجاد ، علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام الذي رواه الزهري :

« آيات القرآن خزائن ، فكلّما فتحت خزينة ينبغي لك أن تنظر ما فيها » .

إنّ كل عصر وجيل يأخذ حاجته من القرآن ، فهو لم يأت لجيل ولا لعصر ، لذا فانّ المطلوب منا هو القراءة الواعية والعصرية لهذا القرآن ،

وفق منهج فهم القرآن ، لاغناء الجيل المعاصر ، ومعالجة مشاكل الانسان وقضاياه على ضوء الهدي القرآني الخالد ، فان في القرآن خزيناً فكرياً لاينضب ، ومحتوىً تشريعياً وأخلاقياً رائداً لكل جيل وعصر . فليست المشكلة الفكرية التي يعاني منها الجيل المعاصر هي في القرآن ؛ انما المشكلة في فهم القرآن وفي مضامينه .



المحتويات

